مصطفى الزين

الحقائق الروحية



مختارات من راما كريشنا

بيسان

الحقائق الروحية

مختارات

من

راما كريشنا

مصطفى الزين

الحقائق الروحية
مختارات
من
راما كريشنا

بيسان

• اسم الكتاب: الحقائق الروحية ـ مختارات من راما كريشنا.

• إعـداد: مصطفى الزين

• الطبعة الثانية: كانون الثاني (يناير) 2002م.

• الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام

• ص. ب: 5261 ـ 13 بيروت ـ لبنان

• هاتف: 351291 ـ فاكس: 747089 ـ 1 ـ 961

• بريد الكتروني: bisanbok@lynx.net.lb

ان راما كريشنا نفسه لم يدوّن او يؤلف او يترك اية مقالات او مخطوطات او كتب. وإنما كان ينشر تعاليمه في الحلقات والندوات والمجالس التي كان يعقدها مع تلاميذه ومريديه، تماماً كما كان يفعل السيد المسيح مع تلاميذه او الأحاديث النبوية التي يتناقلها المسلمون. واقواله ومواعظه المترجمة في هذا الكتاب هي ما دوّنه وجمعه تلاميذه الذين كانوا يحضرون مجالسه ويرافقونه في رحلاته وتجولاته، في مختلف انحاء الهند.

من هو راما كريشنا؟!

بالنسبة إلى المتتبعين سيرته والمعجبين بتعاليمه الروحية والفلسفية والأخلاقية يعتبر راما كريشنا من أضخم العقول التي انجبتها الهند على مدى تاريخها الحضاري وحتى عصرنا الحاضر. كما أن الكثيرين من الفلاسفة الغربيين والمشارقة ينظرون إليه نظرتهم إلى أئمة التصوف الإسلامي أو القديسين المسيحيين، كجلال الدين الرومي والقديس بولس وسواهم... لما تتسم به تعاليمه من محبة إنسانية عميقة شاملة، ولكنه بالنسبة إلى المؤمنين به وبتعاليمه، فهو فوق مرتبة القديسين والمتصوفين، لأنه بلغ، في نظرهم، مرحلة الاتحاد بالله، وأصبح تجسيداً له على الأرض...

فكريشنا هو أحد آلهة الهندوك، ولفظة «راما» تعني باللغة السنسكريتية الاتحاد أو الحلول. فيكون المعنى اللفظي لراما كريشنا «المتحد بالله» أو الإنسان الذي حلت فيه روح الله... وبهذا المعنى يقترب اعتقاد المؤمنين براما كريشنا من اعتقاد أصحاب المذاهب الحلولية الذين يؤمنون بحلول الله في الأحياء والأشياء...

ولد راما كريشنا في الثامن من شهر أيار عام ١٨٣٦ في كامارا بوكور، إحدى قرى البنغال، وتلقى علومه الابتدائية في مدرستها

الصغيرة. واسمه الحقيقي غاداهار، أي «حامل الصولجان»، وهو اسم لا يطلق إلا على الذين ينتمون إلى الطبقات الهندوكية الراقية وعلى رأسها طبقة «البراهمة» التي خرج منها راما كريشنا وغاندي ونهرو وطاغور وسواهم من قادة الهند وزعمائها السياسيين والروحيين. كما اختصت هذه الطبقة، على مدى العصور، بخدمة المعابد التي لا يجوز أن تسند إلى أحد من غير أفرادها، لما في ذلك من شرف عظيم على الصعيدين الديني والاجتماعي. وهذا امتياز شبيه بامتياز قريش قبل الإسلام عندما كانت تسند إلى زعمائها من بني هاشم سدانة الكعبة دون سواهم من زعماء القبائل العربية الأخرى.

ويروي راما كريشنا نفسه بعض مراحل حياته الروحية. فيذكر أن أول اتصال له بالله حدث عندما كان لا يزال في السادسة من عمره، فقد أصيب، وهو في الحقل يجمع سنابل الأرز، بإغماءة روحية بعدما شاهد أسراباً من الطيور، شبيهة بطيور الأوز، تخترق سحب السماء البيضاء الشبيهة بقطع القطن المندوف، مما دعاه إلى التأمل العميق في أسرار الكون والطبيعة. وإذا بهذا التأمل يتحول إلى دوار وجداني لم يلبث أن أصيب على أثره بإغماءة أنسته كل ما حوله، ولم يفق منها إلا بعدما نقله أحد الفلاحين إلى منزل والديه في القرية.

وبعد سنة من هذا الحادث، أصيب بإغماءة ثانية يوم وفاة والده، مما دفعه إلى التفكير بالوجود الموقت لجميع الكائنات وعدميتها في النهاية. ومنذ ذلك الحين بدأ يميل إلى الإنزواء عن الحياة الاجتماعية والاكثار من التردد على المعابد والدخول في جدل روحي وفلسفي مع الكهنة ورجال الدين.

وعندما بلغ السادسة عشرة التحق بأخيه البكر راما كومار في كالكوتا، حيث كان هذا يشغل منصب مدرّس للغة السنسكريتية في احدى مدارسها الرسمية. وهناك التقى بأرملة ثرية تدعى راني

راسماني. وكانت على درجة كبيرة من التدين. فشيّدت معبداً للإلهة كالي على ضفاف نهر الغانج وأسندت إليه كهانته. ومنذ ذلك الحين دخل راما كريشنا مرحلة جديدة من مراحل حياته: لقد أصبح كاهناً ونذر نفسه كلية لله، وبدأت حجب الحياة تتكشّف أمامه حتى صار أكبر غورو (معلم يوغي كبير) عرفته الهند في تاريخها. وأخذ ينشر ويعلم الحقائق الروحية مستعيناً في التعبير عن أفكاره بالقصص والأمثال، على طريقة السيد المسيح، إلى أن توفي في الخامس عشر من شهر آب عام ١٨٨٦. وكانت تعاليمه قد انتشرت في جميع أنحاء العالم فأقام أتباعه ومريدوه مراكز (اشرم) لنشر هذه التعاليم في مختلف أرجاء الهند، وفي آسام وفرنسا وسويسرا وبريطانيا وغيرها من الدول الآسيوية والأوروبية، بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأميركية.

وفي هذا العصر الذي طغت فيه المادة على كل شيء وتحكّم الحقد والتعصب والعنف بجميع أوجه الحياة فيه، فإن تعاليم راما كريشنا ترتدي أهمية خاصة، حتى لتبدو وكأنها واحدة رجاء للذين يحلمون بعالم أفضل وحياة أفضل وإنسان أفضل...

مصطفى الزين

راما كريشنا والتجربة الروحية

بقلم: سوامي «هيسوا راننda»

إن تجربة راما كريشنا الروحية تعتبر تجربة فريدة في نوعها. ذلك أن التجربة الروحية لا تحدث عادة بصورة عفوية وغير منتظرة، وإنما تأتي نتيجة ممارسة طويلة تكون هي نهاية المطاف فيها. أما ما حدث لراما كريشنا، فقد كان العكس تماماً، إذ انه بدأ تجربته الروحية أولاً، وبعد ذلك عكف على الممارسة.

وقد أوضح هو نفسه كيفية حدوث هذه التجربة، فأعطى مثالاً على ذلك، نبتة القثاء، إذ تظهر الثمرة أولاً، وبعد ذلك تظهر الزهرة. والشيء نفسه ينطبق على ثمرة الأناناس. وسنحاول فهم هذه الظاهرة الغريبة وما تنطوي عليه من متناقضات بالاستناد إلى أهم تجارب راما كريشنا الروحية وأبعدها أثراً في حياته، وأعني بذلك تجربته عندما كان يؤدي وظيفته ككاهن في معبد «كالي»، وهو ما زال في التاسعة عشرة من عمره. فقد كان راما كريشنا بحسه المرهف وروحه الملهمة يؤمن إيماناً عميقاً بحقيقة وصحة جميع أساطير الهند وميثولوجيتها. والواقع إن الأساطير والمعتقدات الشعبية في الهند تعتبر ركيزة الحياة الروحية. ولكي نفهم تجربة راما كريشنا يجب ألا تغيب عن ذهننا هذه الحقيقة: إيمانه المطلق بالميثولوجية الهندية. بعكس مفكري العصر الحاضر الذين تغشى عقولهم الشكوك في ما تنطوي عليه هذه

الميثولوجية من حقائق. لقد كان راما كريشنا إذن يؤمن بوجود (الآلهة الأم)، وفقاً لما تطورها الأساطير الهندية. وهي أمٌ ذات ثماني اذرع تريض فوق أسد وتقتل أطفالها باستمرار، وفي الوقت نفسه تمنحهم الحياة وتعمي بصائرهم ثم تمنحهم المعرفة. وهذه متناقضات يعجز عقلنا عن إدراكها. ومع ذلك فإن في التصوير الأسطوري للوجود، وكذلك ضمن كل اسطورة بمفردها، يكمن الحل الحقيقي لمشاكلنا النفسية والوجودية الكبرى ولجميع المعضلات الأساسية التي يمكن للعقل البشري أن يتصورها. فالأسطورة هي ركيزة الحياة نفسها.

وفي محاولتي لشرح تجربة راما كريشنا كنت دائماً اشدد على أهمية هذا الواقع: وهو أن البشر في عصرنا الحاضر تنقصهم حرارة الإيمان الضرورية من أجل الحياة الروحية. فهم لا يجدون لا في أنفسهم ولا خارجها تلك القاعدة الخلفية التي أساسها (اللامعقول)، والتي تظهر اشكالها في المعتقدات الميثولوجية.

إن العقلانية واللاعقلانية ليستا في النهاية سوى طريقتين مختلفتين لإدراك الحقيقة الواحدة. ولكنهما تبدوان لنا مختلفتين إلى حد كبير بحيث اننا نهمل كلياً القيمة الوجودية للامعقول، ونتعلق بما هو معقول فقط، مع انه من الضروري جداً أن نعترف بالقاعدة اللامعقولة للوجود. هذه القاعدة التي مكّنت راما كريشنا من إدراك الحقيقة الكونية الشاملة، لا بواسطة الممارسات الروحية، بل عن طريق الاشراق الروحي.

إلاّ أن راما كريشنا، قبل أن تحدث له حالة الاشراق هذه، قد مر بمراحل عديدة من الضيق النفساني الذي لا يحتمل (Angoisse) إلى حد أن عروقه كانت تتفصد وينضح جسده كله بالدم. كما انه في إحدى نوبات الضيق هذه قد صمم على الانتحار، فتناول خنجراً محاولاً قطع شرايين عنقه. وعندما وصل به الضيق إلى هذا الحد،

وفيما هو يهم باقتراف فعلته هذه، حدثت له الحالة الاشراقية، وظهرت أمام عينيه (الآلهة الأم)، فإذا به يذوب في احضانها ويتحد بها ويصبح تجسيداً لها على الأرض.

وهنا لا بد لنا من التنويه بعدم وجود أية علاقة بين الضيق النفسي الذي كان يعانيه راما كريشنا وبين الحالة الاشراقية التي تجلّت له. فكثيرون هم الذين يعانون مثل هذه الحالة من الضيق النفسي، ومع ذلك لا تحدث لهم التجربة نفسها.

إن (اللاعقلانية) في حياة راما كريشنا ليست في الحقيقة شيئاً غير معقول. إنها غير معقولة بالنسبة إلى العقل الأوروبي فقط الذي هو عقل علمي حسابي. ولكنها بالنسبة إلى روحانية الهند، فهي الحقيقة الإنسانية الوحيدة التي ليس بعدها حقيقة.

وقد بدأت أولى حالات الضيق النفسي في حياة راما كريشنا عندما أعتنق المسيحية، وراح يحاول فهم شخصية المسيح. ولما عجز عن ذلك اعتنق الإسلام محاولاً فهم ما تنطوي عليه تعاليمه. إلا أنه ترك الاسلام أيضاً وعاد إلى جذور الروحانية الهندية وإلى أسطورة (الآلهة الأم). حتى إذا ما تجلت له هذه في رحلته الروحية الطويلة وأبصر الحقيقة الكونية الشاملة (La verite cosmique) انزاحت عن عقله جميع الحجب، وسقطت أمام عينيه جميع الستائر، وأدرك أن جميع الأديان تقود الإنسان في النهاية إلى الله، شرط أن يكون هذا الإنسان مخلصاً وعميقاً في إيمانه.

راما كريشنا والعصر الحاضر

بقلم: لويس باول

هل بدأ الله يستعد للقيام من بين الأموات؟!

هذا التساؤل طرحته مجلة (التايم) الاميريكية في عددها الصادر خلال شهر كانون الأول من عام ١٩٦٩.

وقد أجابت المجلة نفسها عن هذا التساؤل بقولها:

«ربما ان الله - الذي كنا قد ظننا انه قد مات - كان فقط قد توارى في هذه المرحلة التي تعتبر اليوم مرحلة التحول الخطير. ترى، إذا ما عاد الله إلى الظهور، فهل سنعثر عليه في مكانه الطبيعي: أي في الهياكل والمعابد. أم في أماكن حياتنا اليومية: في السوق، في المقهى، في المدينة، أو حتى وراء المتاريس؟!...

يظهر ان التحول العلمي الهائل الذي نشهده اليوم قد طرد الله. ولكن ها هو يظهر من جديد في ما نشاهده حالياً من قلق وتوتر عصبي وضيق نفسي في هذا العصر الذي يسير بخطى جبارة في ميادين الصناعة والتقنية والعلم.

يقول اندريه مالرو: «لأول مرة في التاريخ، بدأ الإنسان يشاهد ولادة حضارة مادية محضة، يبشرنا مهندسو الاقمار الصناعية ومصمموها في الشرق والغرب على السواء، إنها مصدر راحة الإنسان وسعادته».

ربما... إلا أن هذه الأمنية لا يمكنها أن تخدع الإنسان العاقل، بل بالعكس، إنها تزيد مخاوفه وتشنجاته... وتبقية في حيرة من أمره. فهو يتساءل باستمرار: وأخيراً ما هو الهدف؟!... ولعل هذا ما حمل مجلة (الاكسبرس) الفرنسية على طرح التساؤل ذاته الذي طرحته مجلة (التايم): «ولماذا التقدم»؟!.

يبدو لي أن هناك نوعاً من الفراغ يحيط بجيمع الأهداف التي تثير حماستنا وجموحنا نحو أمور مجهولة غامضة لا أحد يدري ما الغاية من الركض وراءها... لماذا تدور هذه الآلة الضخمة؟

يجيب غالبريت على هذا السؤال بشيء من السخرية: «ربما لكي يجد كل منا نفسه أمام قديس بطرس جديد يسأله: ماذا فعلت بحياتك وانت تجهد نفسك من أجل زيادة دخلك المادي؟!...هل هذا هو (الكمال) الذي تسعى إليه»؟!...

إن الكنائس، كما يقول نيتشه، قد تحولت إلى مقابر تتلى فيها الصلوات عن روح الله الذي مات. إلا أن الطاقة الروحية في الإنسان قد فجّرت هذه المقابر. فإذا بالله يبعث منها كي يسحق هذه الموجة الالحادية الجامحة. فنحن عندما نعترف ونقر بأن السياسة في هذا العصر قد بدأت تكتسح أمامها كل شيء، ولاسيما بين صفوف الشبان، فإننا نرتكب خطأ جسيماً بعيداً كل البعد عن الرؤيا البعيدة للأمور. ذلك أن السياسة هي، في النهاية، عمل يقصد منه تحسين أوضاع الجماعة من أجل السعادة الفردية. إلا أن إقحام الله في أمور الحياة من شأنه أن يعطي المفاهيم السياسية أبعاداً جديدة من أجل خلق مجتمع جديد يحتضن الإنسانية كما تحتضن الأم طفلها، لتمسح عن جبينه آثار الكآبة وتملأ نفسه وقلبه بالفرح والسعادة. إذ ذاك تصبح السياسة نوعاً من التعبير عن شعور عميق بالغبطة، ناتج عن حشد طاقاتنا الروحية، ويتخذ شكل تعبير وجداني تتراقص نفوسنا حوله طالبة الاتحاد معه والفناء فيه.

يقول روجيه باستيد:

«ان المقدسات، حتى لا تنقلب إلى مساخر، بحاجة إلى إحاطة نفسها بسر مكنون لا يجوز البحث عنه أو الشك به. وهذا السر منذ العصور القديمة، مروراً بالقرون الوسطى وحتى نهاية القرن الثامن عشر، كان الله. ولكن ليس بمفهومه الكلاسيكي وإنما كملجأ أخير للإنسان. بل كثيراً ما كان مفهومه يقترن بالثورة النابعة من الإحساس بمأساة الحياة. لذلك كان الناس يلجأون إليه لتخليصهم من العذاب اليومي الذي يعانونه، وهذا ما كان يضفي عليه هذه الهالة السحرية التي كانت تجتذب إليها الجماهير من أجل المطالبة بحياة أفضل ويعالم أفضل.

إلا أن العقل قد أعاد الله - بفعل غروره - إلى بيت المجانين. ولكن الله قد عاد من جديد ليلجم هذا العقل الذي جرته مظاهر انجازاته العلمية إلى الإنغماس في جنون التوسع والسيطرة. فظهرت ثورة جديدة على هذا (العالم الآلي) لإحياء رومنطيقية من نوع جديد تقف في وجه (السيطرة العقلانية).

ففي شهر آب من عام ١٩٦٩ عقد في نيويورك مؤتمر لكبار الكتاب وأساتذة الجامعات تحت شعار (نهاية التراث العقلاني).

ذلك ان تفوق العقل بدأ ينهار داخل الوجدان العصري الذي يعيش في هاجس «التعطش إلى شيء ما.. والحاجة إلى التحول والاتصال...»

كما ان مجلة (الاكسبرس) قد نشرت في عددها الصادر في شهر نيسان من العام نفسه بحثاً تحدثت فيه عن (مؤامرة ضد العقل)...

طبعاً لم يكن قصد المجلة ان هنالك مؤامرة فعلية أو حقيقة، وإنما كانت تقصد بذلك التعبير عن استعداد العقل المعاصر للتورط في مؤامرة من هذا النوع.

ومن هذه الرومنطيقية الجديدة انبعثت (الروحانية) التي اخذت تطبع اليوم بطابعها الفن الاميركي مثلاً، وكذلك بروز الحركة الهيبية.

فلا المخدرات، كوسيلة لتوسيع افق الانسان الداخلي، ولا الجموح نحو الحرية الجنسية لإشباع الغرائز والشهوات، بغريبين عن هذه الموجة من (التصوف الحسي). وعندما يحاول الفلاسفة الماديون اقناعنا بطبيعة مجرى الأحداث وسببيتها فإن نفوسنا تظل تهمس في داخلها: «ربما كان ذلك صحيحاً، ولكن هنالك أشياء أخرى»...

فحتى داخل روسيا السوفياتية بدأت تتكون جمعيات سرية للأبحاث الروحية كأتباع برداييف مثلاً.

وانه لأمر ذو دلالة خاصة أن تعلن جريدة (البرافدا) إن إغلاق أماكن العبادة لن يحول المؤمنين إلى ملحدين.

كما أن الأديب السوفياتي اندريه سينيانسكي كتب يقول:

«على الإنسان أن يؤمن لا خوفاً من الموت ولا طمعاً في خلاص النفس، ولا لأن عامة الناس مؤمنون بسبب المعتقدات والتقاليد المتوارثة، بل عليه أن يؤمن لسبب بسيط جداً وهو ان الله موجود»...

وهذا ما أراده راما كريشنا عندما اطلق صرختة الروحية الصافية لايقاظنا على الحقائق الروحية من جديد، بعدما طال سباتنا العميق في أحضان الفلسفة المادية الصرفة، كي يعود بنا إلى الفلسفة الروحية الأزلية الخالدة.

الكتاب الاول

الإنسان والعالم

الفصل الأول

غاية الوجود

لقد ولد عبثاً ذلك الذي اتيحت له الفرصة النادرة لأن يولد إنساناً على هذه الأرض ولم يحاول أن يحقق الله في ذاته وهو على قيد الحياة.

*

عليكم أولاً أن تحققوا الله في نفوسكم وبعد ذلك يمكنكم الإنصراف إلى جمع الثروة. ولكن إياكم أن تفعلوا العكس. لأنكم إذا عشتم حياتكم الأرضية بعد حصولكم على الحياة الروحية فلن تتعرضوا لفقدان الراحة النفسية.

*

خاطب راما كريشنا ذات يوم بعض العاملين في الحقل الاجتماعي قائلاً:

أراكم تتحدثون كثيراً عن الإصلاح الاجتماعي. إنني أنصحكم، قبل أن تباشروا هذه المهمة الإنسانية، أن تحققوا الله في داخلكم أولاً وبعد ذلك يمكنكم الإنصراف إلى الأعمال الخيرية. وتذكروا أن الكثيرين من كبار الأغنياء الذين عاشوا من قبلكم قد هجروا هذا العالم وثرواته وانصرفوا بكليتهم إلى العبادة من أجل معاينة الله. هذا

هو الشيء الوحيد الضروري والأساسي في هذه الحياة. أما الباقي فيعطى لكم بأكثر مما تتوقعون إذا كنتم فعلاً ترغبون فيه. حققوا الله في نفوسكم أولاً وبعد ذلك انصرفوا إلى الإصلاح الاجتماعي.

*

عندما يصل مسافر إلى مدينة فإن أول عمل يقوم به هو التفتيش عن مكان يأوي إليه ويضع فيه متاعه. وبعد ذلك يبدأ بالتجول في المدينة والتفرج على معالمها. أما إذا لم يأخذ لنفسه هذا الاحتياط الأولي فإنه يعرض نفسه لقضاء ليلته في العراء. كذلك الإنسان الذي استطاع ان يؤمن لنفسه راحة دائمة في أحضان الله يمكنه الإنصراف بعد ذلك إلى أعماله اليومية دن خوف أو قلق.

*

على مدخل مستودع للأرز ينصب الفلاحون فخاخاً للفئران يضعون في داخلها بعض حبات الأرز المطهو فتندفع الفئران نحوها بفعل رائحتها ولا تلبث أن تختنق وتموت.

والأمر نفسه يحدث بالنسبة للروح. فمكانها الطبيعي على عتبة السعادة الإلهية التي تفوق ملايين المرات السعادة الأرضية ولكنها غالباً ما تضعف أمام ملذات هذا العالم العابرة فتسقط في فخ المادة حيث تذوي وتموت.

*

إذا عرفتم الله الواحد أصبح بإمكانكم معرفة جميع الأمور الأخرى إن الأصفار التي نضعها على يمين الواحد تصبح اعداداً لا حصر لها. إما إذا ازلنا الواحد فلن يبقى أمامنا سوى مجموعة من الأصفار لا تساوي شيئاً. فالتعددية إذاً لا قيمة لها إلا بوجود الواحد. لذلك أقول لكم: أولاً الله، وبعد ذلك العالم ومن فيه وما فيه.

*

كما ان السراج لا يضيء بدون الزيت كذلك لا معنى لوجود الإنسان بدن رضى خالقه.

*

إذا القيتم قطعة من الرصاص في وعاء مليء بالزئبق فإنها تذوب للحال. كذلك الروح الفردية تفقد وجودها المحدود عندما تذوب في محيط خالقها اللامتناهي.

*

طلب أحد تلامذة راما كريشنا منه أن يشرح له علاقة الذات الإنسانية المحدودة بالذات الإلهية اللامتناهية فأجابه بالمثال التالي:

خطر ذات يوم لدمية من الملح أن تقيس أعماق الميحط. فحملت خيطاً في طرفه كرة صغيرة من الرصاص وانطلقت في مسار طويل حتى وصلت إلى شاطىء المحيط وبدأت تشاهد اتساع رقعة مياهه اللامتناهية. إنها حتى الآن ما زالت هي نفسها «دمية الملح» ومحتفظة بشخصيتها المتميزة. ولكن ما إن وضعت رجلها في مياه الميحط حتى ذابت كلياً فيه وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منه ولم يعد بالإمكان مشاهدتها أو التعرف إليها. إن الملح المصنوعة منه الدمية مستخرج في الأساس من مياه المحيط ها هو يعود ليذوب فيه ويتحد معه من جديد. لقد عاد «المحدود» ليصبح واحداً مع «اللامحدود». كذلك النفس البشرية. فهي في النهاية كهذه الدمية من الملح. إنها الذات المحدودة المتميزة. اما الذات الإلهية فهي هذا المحيط اللامحدود، اللامتناهي.

ثم إن دمية الملح، بعد إن ذابت في مياه المجيط، لم يعد بإمكانها أن تعود إلى وجودها الفردي لتشرح أعماق الميحط. وهذه هي أيضاً حال عظماء الروحانيين من البشر الذين غاصوا في أعماق الذات الإلهية واتحدوا معها. لقد اصبحوا هم ايضاً «لامتناهين»

و«لامحدودين»، لذلك لم يعد بإمكانهم الخروج من الأعماق كي يشرحوا للعالم طبيعة الله اللامحدودة واللامتناهية.

وإذا ما قدر لدمية الملح، بعد أن ذابت في مياه المحيط، أن تعود بقدرة الله - وهذا أمر ممكن - إلى وضعها الفردي لتتحدث عن أعماق المحيط فإنه لا يمكنها أن تتكلم إلا بلغة المحدود أي بلغة المنفصل أو المتميز. وهذا يعني ان عليها أن تتصرف كأحد سكان هذا العالم المادي والنسبي. وهذا هو السبب في أن «السر الكبير» يتحدى جميع المحاولات التي تبذل لشرحه. فالمطلق و«اللامتميز» لا يمكن التعبير عنه بواسطة النسبي والمتميز. إن اللامحدود لا يمكن إدراكه أو شرحه بواسطة المحدود.

*

الجسم البشري اشبه بالقدر الذي نطبخ فيه طعامنا. أمّا العقل والحواس فهما كالماء والأرز. فعندما نضع فوق النار قدراً يحتوي على الماء والأرز يصبح القدر وما فيه ساخناً وإذا ما لمسناه أو لمسنا محتوياته تحترق أصابعنا. مع أن الحرارة، في ذاتيتها، ليست من طبيعة القدر ولا من طبيعة الماء أو حبات الأرز. كذلك فإن قوة الله فينا هي التي تحرك فكرنا وحواسنا وتجعلها تقوم بأدوارها. وعندما تتوقف هذه القوة عن العمل يتوقف عمل عقلنا وحواسنا. إن الجهل هو الذي يدفعنا للقول: «نحن الذين نتحرك ونعمل». بينما كل قوتنا، في الحقيقة، مستمدة من قوة الله فينا.

*

الفصل الثاني

الحرية والعبودية

عندما تدخل عدة أسماك في الشبكة فإن بعضها يرضخ للأمر الواقع ويبقى في داخلها. بينما تأخذ أسماك أخرى بالتخبط محاولة الافلات منها ولكنها تبقى عاجزة عن الخلاص. وهنالك فئة أخرى تنجح في الافلات من أسرها بأن تمزق خيوط الشبكة لتعود مجدداً إلى السباحة في مياه المحيط. كما أن بعض الأسماك على درجة كبيرة من الحذر بحيث لا تدخل الشبكة أصلاً.

كذلك يوجد في هذا العالم أربعة أنواع من النفوس البشرية:

١ ـ النفوس المقيدة.

٢ ـ النفوس الطامحة إلى الحرية

٣ ـ النفوس المحرَّرة.

٤ ـ النفوس التي وجدت الحرية الأبدية.

بالنسبة للنفوس الطامحة إلى الحرية والنفوس المحررة كلياً فإن هذه الحياة تشبه بئراً موحشة لا نهاية لآلامها ومآسيها.

الحرية والعبودية كلاهما ينبعان من مصدر واحد: الفكر. فإذا ما رددت بينك وبين نفسك: «أنا إنسان حر، سواء عشت في هذا العالم أو

في غابة مقفرة فما من قوة يمكنها استعبادي. أنا ابن الله، ابن ملك الملوك، فمن يستطيع اذلالي وتقييدي بالسلاسل؟...» فإنك تصبح حراً بالفعل. إن الإنسان الذي يصاب بلدغة حية سامة إذا ما قال بكل ارادة قوية وإيمان عميق: «السم شيء لا وجود له» فمن المؤكد أنه لن يموت من تاثير السم.

*

كما ان على الرجل الذي يسير حول حافة بئر سحيقة أن يتأنى في مشيته حتى لا تزل به قدمه فيقع في البئر، كذلك فإن على الإنسان الذي يعيش وسط هذا العالم ان يكون دائم الحذر من الإغراءات والتجارب السيئة. فالذي يسقط في البئر لا يمكن انتشاله منها دون أن يكون جسمه قد أصيب بالرضوض وتلوث بالاقذار.

*

ليس هنالك اي ضير في أن تمخر السفينة عباب البحار. ولكن الخطر يصبح جدياً عندما تتسرب المياه إلى جوف السفينة لأنها، إذ ذاك، سوف تغرق حتماً.

كذلك ليس هنالك ما يمنع الحكماء والمتنسكين من السهر على راحة أسرهم واطفالهم ومخالطة الناس. ولكن عليهم الاّ يدعوا إغراءات الحياة وتوافهها تتغلغل إلى دخيلة نفوسهم.

صحيح ان الله موجود في جميع الكائنات حتى داخل النمر الشرس. ولكن هذا لا يعني أن علينا أن نلقي بأنفسنا على عنق النمر ونضمه إلى صدرنا. واستطراداً أقول لكم: إن الله موجود حتى في نفوس بعض الناس الأشرار ولكن ليس من الحكمة معاشرتهم ومخالطتهم.

*

الخطيئة كالزئبق لا يمكن ابداً تجاهل وجودها أو اخفاؤها. فنحن عندما نقوم بتحضير مسحوق من الزئبق، حتى ولو كان ذلك في منتهى السريّة، فعلينا أن نتوقع الانفجار في يوم أو في آخر. كذلك عندما نرتكب خطيئة ما فعلينا ان نتوقع دائماً سوء العاقبة مهما طال الزمن.

الفصل الثالث

الحياة والموت

إن عودة الإنسان إلى الحياة من جديد بشكل أو بآخر[1] تحددها الخواطر التي مرت بذهنه في لحظة موته. لذلك فإن المواظبة على طقوس العبادة ترتدي أهمية خاصة من أجل تحرير العقل كلياً من المشاغل الأرضية ويصبح ذكر اسم الله ملازماً لتفكيرنا في جميع الحالات والأوقات حتى في لحظة الموت وبذلك نعود إلى الحياة من جديد بشكل أفضل ووجود أمثل وربما في عالم أفضل من هذا العالم.

*

سأل أحدهم راما كريشنا السؤال التالي:

هل الإنسان محكوم عليه بالعودة ثانية إلى الحياة الأرضية إذا لم يفكر بالله ساعة موته حتى ولو كان قد قضى معظم حياته وهو يفكر فيه؟

فأجابه راما كريشنا:

إن البشر يفكرون بالله غالباً ولكن ينقصهم الإيمان القوي به. فهم

(1) يقصد ما يعرف اليوم بعقيدة «التقمص» وراما كريشنا من المؤمنين بهذه العقيدة بل ومن المبشرين بها.

كثيراً ما ينسونه ويعودون للتشبث بعالمهم الأرضي. والتفكير المستمر بأمور الحياة الأرضية يشبه وضع الفيل الذي ما أن يغسل صاحبه عنه الأدران والأقذار حتى يعود فيتمرغ في الوحل. فلو إن صاحبه اقتاده رأساً بعد غسله إلى ياخوره لما وجد الفرصة لكي يوسخ جسمه من جديد. كذلك الإنسان إذا حصر فكره في الله ساعة موته فإن روحه تكون قد تطهرت كلياً وينجو نهائياً من خطر الولادة من جديد في العالم الأرضي.

*

إن حبة الأرز غير المطهوة هي التي تولد السنبلة. أما الحبة المطهية فلم تعد قابلة للتوالد. كذلك الإنسان الذي يبلغ مرتبة الكمال الروحي. فهو لن يولد من جديد في هذا العالم الأرضي لأن المعرفة قد طبخته ولم يعد هنالك أية ضرورة أو منفعة من عودته إلى الحياة. لقد تحرر نهائياً من عبودية هذا العالم. اما الإنسان الذي لم يبلغ درجة الكمال في حياته الأرضية فسيظل يولد باستمرار حتى يصل إلى درجة الكمال هذه.

*

الحياة والموت اشبه بالفقاقيع فوق سطح المحيط. فمياه المحيط حقيقية ومستمرة بينما الفقاقيع أشياء عرضية ومؤقتة. فهي لا تكاد تطفو فوق سطح المياه حتى تختفي وتتلاشى.

والله هو المحيط بينما النفوس هي الفقاقيع: منه تولد وبه تحيا وإليه تعود.

ماذا بإمكاننا أن نفعل في وجه الموت؟!.. طبعاً لا شيء. لذلك علينا أن نعد انفسنا جيداً لاقتباله وأن نحاربه، عندما يدخل بيوتنا، بسيف اسم الله المقدس. فالله وحده صاحب الشأن... لذلك علينا أن

نفوّض امرنا كلياً إليه. إن الإنسان لا يخشى شيئاً إذا ما سلم زمام أعماله ومصالحه إلى رجل شريف موثوق. لذلك فلتكن مشيئة الله في كل أمورنا. أما الألم فسوف يستمر إلى الأبد. إنه حصيلة «الأنا» في نفس كل مخلوق بشري. ويجب الا تغرب عن بالنا أبداً هذه الحقيقة وهي: إن كل ما في هذا الكون شيء مؤقت. فالبيت والزوجة والأطفال الثروة الخ.. الخ... كلها أشياء مؤقتة وزائلة. إن شجرة البلح هي وحدها حقيقية. فلماذا ننوح ونتفجع إذا ما سقطت منها ثمرة أو ثمرتان؟!...

اليكم ما يفعله الله: إنه يخلقنا ثم يعطينا فرصة مؤقتة للحياة ثم يميتنا. فالموت إذاً حقيقة قائمة. وعندما تحين لحظة الدمار الشامل فإن كل شيء سوف يدمر ويهلك ولن يبقى في هذا الكون أي كائن حي. ولكن الله يحتفظ بالبذور كي يزرعها من جديد عندما تحين ولادة خليقة جديدة.

*

الفصل الرابع

عبودية المال

إن عبوديتنا على هذه الأرض سببها الإنهماك الدائم في جمع الثروة والتعلق بأهداب المرأة. لذلك أقول لكم: إن طالب الدنيا مقيد اليدين والرجلين. فهو يعتقد أن راحته وطمأنينته النفسية مرهونة بالحصول على المرأة والثروة مع أن هذا بالضبط ما يقتل فيه الروح. إن أول سؤال تطرحه المرأة على زوجها وهو على فراش الموت: «يبدو إنك ستفارقني فما هي الثروة التي توصي لي بها»؟!...

قدم على راما كريشنا ذات يوم رجل ثري يدعى «لاكشيمانا رايانا» من أجل التعرف عليه والاستماع إلى تعاليمه. فكان بينهما حديث طويل حول شؤون الروح ومواضيع دينية أخرى. وقد أعجب الرجل إعجاباً كبيراً بآراء راما كريشنا وفلسفته وتعاليمه فعرض عليه أن يضع تحت تصرفه ستة ملايين روبية. وما إن سمع راما كريشنا هذا العرض حتى غضب غضباً شديداً وأصيب بدوّار كاد يفقده وعيه. وعندما استكانت أعصابه وهدأ روعه صرخ في وجه الرجل: «اخرج من هذا المكان فوراً. إنك تحاول أن توقعني في شباك المادة.» فارتسمت الدهشة على وجه التاجر ثم اطرق برهة وخاطب راما كريشنا قائلاً: «يبدو لي، يا معلم، إنك لم تبلغ بعد درجة الكمال الروحي». «وكيف ذلك» سأله راما كريشنا؟. فأجابه التاجر: «إن

الإنسان الكامل لا يفرق في الأشياء التي تعرض عليه بين ما هو مقبول وما هو غير مقبول. فما يهدى إليه لا يسره وما يأخذ منه لا يزعجه». فانفرجت شفتا راما كريشنا عن ابتسامة صغيرة ورد عليه قائلاً:

«الا ترى إن لطخة على صفحة مرآة جلية، مهما كانت صغيرة، تمنع المرآة من أن تظهر صورتك بشكل واضح كلياً؟. كذلك فإن الروح النقية يجب أن لا يعكر صفاءها أي مظهر من مظاهر الأبهة أو المال».

فأجابه التاجر: «هذا صحيح. ولكن يمكنك أن تودع هذا المبلغ لحسابك في إحد المصارف باسم حفيدك «هريداي» الذي كرس حياته لخدمتك والسهر على راحتك». فرد عليه راما كريشنا: «إن هذا الاقتراح أيضاً غير مقبول. لنفرض أنني طلبت يوماً من «هريداي» أن يدفع من هذا المال مبلغاً لأحد الناس أو لإحدى الجمعيات الخيرية واعترض على رأيي. فعندها سوف تتطرق إلى عقلي الفكرة التالية: إن المال مالي و«هريداي» ليس سوى مؤتمن عليه. أي انني سابتلى بفكرة التملك. و[illegible] يعني إنني ساعود إلى «الأنانية» التي تخلصت منها «نهائياً».

قال راما كريشنا ذات يوم لراكهال[1]: يا بني، أحَبُّ علي أن اسمع بأنك غرقت في نهر «الغانج» من ان اسمع بأنك رجل رديء تخدم الناس حباً بالمال والمقتنيات الأرضية.

*

أن المال لا يؤمن لكم سوى الخبز. لذلك لا تجعلوا منه هدفكم الوحيد في هذه الحياة.

*

---

(1) احد تلامذة راما كريشنا المشهورين وقد اتخذ فيما بعد لقب «سوامي براهما نندا».

ألقى راما كريشنا على تلامذته في إحدى المناسبات الموعظة التالية: اقتدى ناسك ذات يوم بنصيحة مرشده الروحي (Gouru) فبنى كوخاً صغيراً في غابة بعيدة عن الأماكن السكنية وبدأ يمارس فيه الرياضة الروحية. وكان في صباح كل يوم، بعد أن يفرغ من صلواته وتأملاته، يخلع سرواله الوحيد الذي يرتديه وينشره على سطح كوخه ثم ينطلق إلى أقرب قرية ليستجدي قوته اليومي. وذات يوم وجد بعد عودته من القرية إن الفئران قد قضمت سرواله. فعاد إليها في صبيحة اليوم التالي كي يستجدي سروالاً بديلاً. وحصل على السروال البديل. ولكنه بعد وقت قصير وجد إن الفئران قضمت ايضاً سرواله الثاني. فانزعج كثيراً للأمر وأخذ يتساءل بينه وبين نفسه: «أين اذهب للحصول من جديد على سروال آخر وممن اطلبه»؟. وعندما التقى بالفلاحين شرح لهم حالته وما فعلت الفئران بسرواله الثاني. فقال له أحدهم: «من يستطيع أن يهديك سروالاً جديداً كل يوم؟ أليس من الأفضل أن تضع في كوخك٪ هراً يبعد عنك خطر الفئران»؟. فعمل الناسك بهذه النصيحة واصطحب معه من القرية هراً. ومنذ ذلك اليوم ابتعدت الفئران عن كوخه مما ادخل على قلبه سروراً بالغاً.

وأولع الناسك بهره ولعاً كبيراً، فراح يداعبه ويستحصل له كل يوم على قوته من الحليب الذي كان أهل القرية يتصدقون به عليه. وأخيراً ضاق الفلاحون به ذرعاً فقال له أحدهم: «أيها الرجل القديس، إنك في كل يوم تستجدي منا الحليب لاطعام هرّك. وهذا أمر مزعج لك ولنا. قد يتصدق عليك الناس بالحليب لأسبوع أو لشهر، ولكن لن يستطيعوا أن يتصدقوا عليك بالحليب طيلة أيام السنة!. أليس من الأفضل لك أن تضع في كوخك بقرة تؤمن من حليبها قوتك وقوت هرك»!؟..

وعمل الناسك بنصيحة الفلاح فاستحصل على بقرة وربطها أمام كوخه ولم يعد بحاجة إلى استجداء الحليب من أهل القرية.

ولكنه بعد بضعة أيام وجد نفسه مضطراً للحصول على علف للبقرة. فتوجه إلى القرية كي يستجدي لها العلف. فقال له الفلاحون: «يوجد حول كوخك أراض واسعة غير مستصلحة. فلماذا لا تبدأ بحرثها وزرعها وبذلك تؤمن العلف لبقرتك»؟.

وعمل الناسك بنصيحتهم هذه المرة أيضاً فبدأ يحرث الأرض من حول كوخه ويستأجر العمال لزرعها وحصاد إغلالها وأخذ يعيش حياة الفلاح المنهمك بأمور أرضه حتى أصبح من أكثر أهل القرية غنى وثراء. وبعد ردح من الزمن خطر للمرشد (الغورو) أن يتفقد أحوال هذا الناسك فتوجه نحو المكان الذي يقيم فيه. ولكنه بدلاً من أن يجد الكوخ الحقير الذي كان يتوقعه وجد بيتاً كبيراً وسط مزرعة مليئة بالأشجار والأغلال. فسأل أحد الفلاحين: «هل لك أن تخبرني أين أصبح الناسك الذي كان يعيش هنا في كوخ صغير»؟. ولكن الفلاح لم يتمكن من إجابته لأنه عندما قدم إلى المزرعة للعمل فيها كان الناسك قد أصبح من أهل الثراء والجاه. فتوجه المرشد نحو القصر القائم في وسط المزرعة وما إن دخله حتى وجد الناسك في داخله. فبادره قائلاً: «يا بني ما هذا كله»؟! فامتلأ وجه الناسك بخجل شديد وارتمى على قدمي معلمه قائلاً: «كل هذا يا سيدي من أجل الحفاظ على السروال»!... وحدثه بكل تفاصيل ما جرى له. ثم نهض وسار وراء معلمه مخلفاً وراءه كل ما أصبح يملك من أرض وثروة. لقد تلاشت جميع أطماعه الأرضية لمجرد مشاهدة مرشده.

*

الفصل الخامس

«الانا»...

إن الشمس تنشر اشعتها وحرارتها على جميع المخلوقات والكائنات. ولكن سحابة صغيرة تحجب نورها عنا.

كذلك فإن الله لن يتجلى امامكم ما دامت الأنانية تجليب قلوبكم بردائها القاتم.

*

إذا انت وضعت قطعة قماش سميكة بيني وبينك فلن يعود بإمكانك ان تراني رغم أنني موجود إلى جانبك.

كذلك فبالرغم من ان الله هو أقرب إلينا من حبل الوريد فإن رداء انانيتنا يحجب عنا نور وجهه.

*

إن أشعة الشمس لا تنعكس في مياه كدرة. كذلك معرفة الذات لا يمكنها أن تستيقظ في عقل رجل ما دامت افكاره لا تدور الا حول هذا «أنا» وهذا «لي»...

*

ألا ترون إن مياه الأمطار لا تستقر فوق القمم الشاهقة وإنما

تنحدر إلى الوديان وتستقر في قعرها؟. كذلك النعمة الإلهية لا تجد لها مكاناً في قلوب المغرورين والمتعجرفين من الناس بل تستقر في قلوب الودعاء والمتواضعين.

*

الفصل السادس

المعرفة الحقيقية

إن الغرور الذي ينتاب أحياناً عقول الناس يمكن إزالته تدريجياً. أما غرور القديسين بقداستهم فإزالته أمر في منتهى الصعوبة.

*

المعرفة الحقيقية هي المعرفة التي تطهّر العقل والقلب. وما سوى ذلك فزيادة في الجهل[1].

*

ما فائدة العلم المكدس بين دفات الكتب؟ إن كبار اللاهوتيين يحفظون عن ظهر قلب جميع الآيات والنصوص المقدسة ويرددونها باستمرار دون ان يدركوا حقيقة التعاليم التي تنطوي عليها أو أن يمارسوا هذه التعاليم في سلوكهم اليومي. إن مجرد ترديد الآيات والنصوص المقدسة، مع بقائكم متمسكين بمتع الحياة المادية، لن يقودكم إلى الحكمة أو إلى طريق الخلاص

*

---

(1) يشبه هذا القول قول شمس الدين التبريزي لجلال الدين الرومي: العلم ـ الذي لا ينقذك من نفسك الجهل خير منه.

كثيراً ما تجد بين علماء الدين رجالاً في منتهى الفصاحة. فهم قادرون على إلقاء المحاضرات والخطب والمواعظ الطويلة حول شؤون الله والروح والمطلق والفلسفة الخ... ولكن القليلين منهم استطاعوا أن يحققوا ما يتحدثون عنه.

*

من السهل جداً على المرء أن يردد السلم الموسيقي: دو، ري، مي، فا، سو، لا، سي، دو الخ... ولكن من الصعب عليه أن يلعب هذا السلم على آلة موسيقية. كذلك من السهل التحدث عن الدين ولكن من الصعب ممارسته.

*

سأل أحدهم راما كريشنا: «هل نحصل على رضى الله بمجرد قراءتنا الكتب المقدسة»؟...

فأجابه:

«إن أوراق التقاويم الهندية مليئة بتحديد الأيام التي تهطل فيها الأمطار. ولكنك إذا عصرت جميع أوراق هذه التقاويم فإنك لن تحصل على نقطة ماء واحدة. كذلك الكتب المقدسة. فهي مليئة بالتعاليم الروحية المثالية. ولكن مجرد قراءتها لا يكفي لجعل الإنسان مثالياً ومتقدماً في روحانيته. فالأمر المهم هو ممارسة هذه التعاليم وبذلك يحصل الإنسان على نعمة الله ومحبته».

*

الفصل السابع

الدين ورجاله...

ما دامت النحلة تحوّم حول الزهرة دون أن تحط في قلبها لتمتص رحيقها فإنها تظل تحدث الطنين والونين. ولكن ما أن تحط في قلبها حتى تبدأ بامتصاص رحيقها بشهية وصمت. كذلك الإنسان. فطالما هو يناقش ويجادل حول المذاهب والأديان وأيها أفضل فهذا يعني إنه لم يذق بعد رحيق الإيمان. أما عندما يدخل الإيمان السليم إلى قلبه فإنه يشعر بالنشوة الحقيقة ويلوذ بالصمت.

*

القى راما كريشنا الموعظة التالية أمام حشد من الرهبان الهندوكيين ممن نذروا أنفسهم لنشر التعاليم الدينية المقدسة وخدمة الفقراء والمحتاجين على الصعيدين الروحي والاجتماعي فخاطبهم قائلاً:

إن دور رجل الدين في هذه الحياة دور صعب حقاً. فإذا لم تكونوا قد تلقيتم أمراً من الله لكي تقوموا بهذا الدور فلن يكون بإمكانكم أن تعظوا الناس وترشدوهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم. وإذا ما حاولتم ذلك، قبل أن تكونوا قد تلقيتم هذا الأمر أو التفويض، فإن أحداً من الناس لن يستمع إلى اقوالكم كما أن مواعظكم لن تترك في

نفوسهم أي اثر. ابدأوا أولاً بتحقيق الله في نفوسكم. وعندما تتلقون منه الأمر بالوعظ والارشاد انصرفوا إلى مباشرة رسالتكم.

عندما كنت صغيراً كان يوجد في قريتي بركة ماء. وكان الناس كلما استيقظوا في الصباح ليغتسلوا فيها وجدوا مياهها وضفافها مليئة بالأقذار. فيأخذون بشتم أولئك المجهولين الذين رموا اقذارهم فيها ومن حولها. ولكن هذه الشتائم لم تنفع في جعل البركة نظيفة. إلى أن جاء أحد رجال الشرطة ووضع جنب البركة يافطة كتب عليها: «ممنوع إلقاء الأقذار في البركة تحت طائلة العقاب». ومنذ ذلك الحين لم يعد أحد يجرؤ على رمي الأقذار فيها وأصبحت البركة نظيفة.

لهذا أقول لكم: عليكم ان تحصلوا أولاً على تفويض من الله بممارسة رسالتكم أو بما يسمونه في هذه الأيام «أوراق اعتماد». وبعد ذلك يمكنكم مباشرة الوعظ والارشاد والقاء المحاضرات حيثما تشاؤون. إذ عندما يأمركم الله أو ينتدبكم لهداية الناس فإنه يعطيكم في نفس الوقت القوة المعنوية الضرورية كي تقوموا بهذا الدور.

*

أن معظم رجال الدين ليس لديهم الرغبة الجامحة ولا الجلد الطويل على الغوص في أعماق المحبة الإلهية. فهم لا يمارسون الطقوس الدينية بصورة متواصلة ومنتظمة كما انه تنقصهم الجرأة في مواجهة الحقيقة والنظر إلى الأمور بتجرد. بل بالعكس. فكلهم يريدون، بقليل من العلم، أن يرشدوا الآخرين ويلقوا عليهم المواعظ. انه لأمر غريب حقاً! فتعليم الغير اشق المهن واصعبها. وحده الذي حقق ارادة الله وانتدب منه لتعليم اخوته من البشر يستطيع أن يقوم بهذا الدور البالغ الصعوبة والخطورة...

*

بينما كنت متوجهاً ذات يوم نحو غابة قريبة من معبد «كالي»[1] مفتشاً عن مكان استطيع أن أنصرف فيه إلى تأملاتي سمعت صراخ ضفدعة يتكرر عدة مرات. فاقتربت من مصدر الصوت وإذا بي أجد الضفدعة في فم حية عادية. فتابعت طريقي نحو الغابة وعندما عدت منها باتجاه المعبد وجدت الضفدعة ما زالت تصرخ في فم الحية. فقلت في نفسي: لو ان هذه الضفدعة وقعت في فم أفعى لما كانت صرخت أكثر من ثلاث مرات ثم استقرت نهائياً في بطنها. ولكنها وقعت في فم حية عادية لا هي قادرة على ابتلاعها ولا هي قادرة على تركها. إن شقاء الضفدعة هنا لا يقل عن شقاء الحية التي أمسكت بها.

كذلك إذا ما انتدب رجل دين، ناقص العلم، نفسه لارشاد الآخرين فإن آلامه وآلامهم تصبح لا حد لها. فالذي يقع بين يدي رجل دين عديم الكفاءة لا يمكنه أبداً أن يتحرر روحياً. أما الذي يساعده الحظ في الاهتداء إلى رجل دين أو مرشد روحي كبير، فإن أنانيته لن تصرخ أكثر من ثلاث مرات وبعدها يتحرر عقله كلياً.

قدم على راما كريشنا ذات يوم رجل من «كالكوتا». وكان معروفاً بضخامة ثرائه وكثرة اعتداده بنفسه. فأخذ يجادل راما كريشنا بطريقة فيها من الغباء بقدر ما فيها من الغرور ويقارعه بحجج واهية مليئة بالعناد والمكابرة. وأخيراً التفت إليه راما كريشنا وخاطبه قائلاً: «ما فائدة كل هذه المجادلات العقيمة؟! إن نصيحتي إليك أن تصلي لله بقلب بسيط متواضع عامر بالإيمان وستجد إنك سترتاح كثيراً وتحصل على السلام النفسي»... إلا أن هذا الجواب لم يعجب الزائر المتعجرف فأجاب راما كريشنا قائلاً: «هل تريد أن تفهمني بأنك رجل يعرف كل شيء»؟!.

---

(1) المعبد الذي كان يخدم فيه راما كريشنا ككاهن.

فشبك راما كريشنا أصابعه ببعضها وأجابه بتواضع كلي: «صحيح إنني رجل قليل المعرفة. ولكن المكنسة، حتى ولو كانت هي نفسها وسخة، تستطيع أن تزيل الأوساخ من الأماكن القذرة».

*

إن تاجر الحبوب الكبير يمكنه دائماً أن يملأ اهراءه بالقمح كلما باع كمية منه. أما التاجر الصغير فكلما باع الكمية التي لديه فرغ حانوته. كذلك فإن الله يملأ دائماً قلوب وعقول المرشدين الكبار بأحاسيس وأفكار جديدة مستديمة. وبالتالي فبامكانهم دائماً أن يثقفوا الناس بأقوال جديدة ويرشدوهم إلى حقائق جديدة يكشفها الله أمامهم أكثر بكثير من التعاليم الموجودة في بطون الكتب. أما الذين تقتصر معارفهم على ما قرأوه وتعلموه في الكتب فمثلهم كمثل الحانوتي الصغير سرعان ما تنفذ أفكارهم وتعاليمهم.

الكتاب الثاني

الإنسان والتقدم

الفصل الثامن

أهل الدين... وأهل الدنيا

تحدثنا كتب «الفيدا»[1] عن طيور خرافية تدعى «الهوماس» لا تعيش إلا في الأجواء العليا ترفض الانحدار إلى مستوى الأرض. وهي عندما تتناسل تلقي بيوضها في الفضاء فتأخذ هذه البيوض بالانحدار. وأثناء انحدارها ـ وقبل أن تصل إلى مدار الكرة الأرضية ـ تخرج منها الطيور الصغيرة. ولكن هذه الطيور الصغيرة، بفعل الفريزة، تنتفض وتضرب الهواء بأجنحتها محلقة نحو الأجواء العليا حيث يعيش أهلها رافضة ملامسة الأرض. إن المعلمين الكبار أمثال «يسوع» و«بوذا» و«ناراداً» «وشوكاديفا» وسواهم... أشبه بهذه الطيور الخرافية. فهم منذ طفولتهم قد ثاروا على كل ما يربطهم بهذا العالم الأرضي ومفاسده ومغرياته فانتفضوا بأجنحتهم وارتقوا إلى العالم الأعلى ليعيشوا في أجواء الحكمة الحقيقية والنور الإلهي.

*

شغف الله شغفاً بالغاً بالصلوات التي كان يتلوها «براهلادا»[2] فسأله يوماً ان يفصح له عن أية رغبة يتشوق إليها كي يحققها له. فأجابه

---

(1) كتب هندوكية مقدسة.

(2) قديس هندي ميثولوجي.

«براهلادا»: «كل ما أطلبه منك هو أن تغفر للذين أساؤوا إلي. لأنك إذا انتقمت منهم تكون قد انتقمت من نفسك إذ انك موجود في كل كائن.

*

عندما ينحدر نهر سريع الجريان من قمم الجبال نحو الأودية فإن مياهه تخلّف وراءها الكثير من الزوابع المائية والتيارات الهوجاء. ولكن ما أن يأخذ النهر مجراه الطبيعي في الأراضي المنبسطة حتى تهدأ مياهه وتستكين. كذلك قلوب الرجال الورعين الأتقياء. فهي غالباً ما تعتريها عواصف وتيارات الشك والألم واليأس. إلا أن هذه التجارب ليست سوى انقطاع موقت ولفترة قصيرة تعود بعدها إلى صفائها الطبيعي.

*

ما هو الموقف الذي يجب أن يقفه الرجل المتدين حقاً أمام الإغراءات الكبرى؟ الجواب بسيط: عليه أن يبتعد عنها حتى ولو احتاج الأمر إلى أن يستعمل العنف مع نفسه. ان مثله في ذلك كمثل لب ثمرة «المانغا» الذي يصعب إخراجه من الثمرة بدون ضغط قوي من قبضة اليد.

*

التدين الحقيقي هو التدين الصامت والسري. أما التدين القائم على حب الظهور فتدين مزيف يقصد منه خداع الناس. إن الرجل المتدين حقاً هو الذي يحجم عن ارتكاب أية معصية حتى ولو كان لوحده في غابة مقفرة لاقتناعه بأن الله يراه ويحاسبه على معصيته.

سأل أحدهم راما كريشنا السؤال التالي:

«كيف يمكننا أن نكرس حياتنا للعبادة بينما نحن مضطرون للتفكير دوماً بكسب خبزنا اليومي»؟

فأجابه راما كريشنا:

ان من تعملون من أجله يعطيكم ما أنتم بحاجة إليه. إن الله قد أعد ترتيباته لكم قبل أن يخلقكم في هذا العالم.

دار ذات يوم بين «ناراندرا» وراما كريشنا الحوار التالي:

ـ ناراندرا: ما هو الموقف الذي علينا أن نقفه عندما يعترض سبيلنا إناس أشرار يعكرون علينا راحتنا ويعتمدون إيذاءنا.

ـ راما كريشنا: على الرجل الذي يعيش في هذا العالم ـ خصوصاً إذا كان رب عائلة ـ أن يظهر بعض الشجاعة أمام أي شخص يتهدده أو يهم بإيذاء أطفاله حتى ولو اقتضى الأمر استخدام لهجة التهديد. ولكن هذا الموقف يجب أن يكون مظهرياً فقط لمنع الأشرار من إلحاق الأذى بالآخرين. أما من حيث المبدأ فيجب الابتعاد عن مقابلة الشر بالشر.

ثم ضرب له المثال التالي:

كانت حية كبيرة سامة قد اتخذت حجراً لها على قارعة طريق موحشة. لذلك لم يكن أحد ليجرؤ على سلوك هذه الطريق. وذات يوم بينما كان أحد الحكماء يجتاز هذه الطريق قاصداً قرية مجاورة حذّره بعض الصبية من مغبة مواصلة سيره بسبب خطر تلك الحية. فأجابهم الحكيم:

«شكراً يا أولادي على نصيحتكم. ولكنني رجل لا أخاف بطبيعتي. كما انني أعرف بعض «الرقى» التي تحميني من كل أذى. ثم تابع سيره. وفجأة برزت له الحية وبدأت تزحف باتجاهه. فما كان من الحكيم إلاّ أن تلفظ برقياه. وإذ بالحية ترتمي على قدميه دون أن تقوى على الحراك. فسألها الحكيم قائلاً:

«يا صديقتي، هل في نيتك أن تلدغيني»؟... إلا أن الحية ظلت عاجزة عن الحركة بعد أن أصيبت بالذهول لطيبة قلب هذا الحكيم وفرط محبته. فخاطبها الحكيم قائلاً: «هيّا اخبريني لماذا اتخذت لك

مهنةً إلحاق الضرر والأذى بالآخرين؟!.. سوف ألقنك عبارة مقدسة ترددينها طيلة حياتك وبهذه الطريقة سوف تهتدين إلى محبة الله وتصبحين عاجزة عن فعل الشر... ثم اقترب منها ولقنها تلك العبارة. فما كان من الحية إلا أن انحنت بطاعة وخشوع ثم انسلّت إلى جحرها لتقضي ما تبقى من حياتها في البراءة والطهارة والكفّ عن ايذاء أي مخلوق.

وبعد بضعة أيام لاحظ الصبية هذا التغير المفاجيء في سلوك الحية فظنوا إنها قد استنفدت سمّها وأصبحت غير قادرة على ايذائهم. فأخذوا يسحبونها من جحرها ويرجمونها بالحجارة ويضربونها بالعصيّ والقضبان. إلاّ أن الحية كانت تتحمل كل هذا العذاب بصبر عجيب دون أن تبدي أية مقاومة ثم تنسل إلى جحرها من جديد وهي تلعق جراحها بصمت وطول اناة.

وبعد مدة من الزمن عاد الحكيم من رحلته سالكاً نفس الطريق. فأخذ يفتش عن الحية ولكنه لم يعثر لها على اثر... واخيراً اخبره الصبية إن الحية قد ماتت!...

إلا أنه لم يصدق الخبر. فقد كان يعلم أن لذكر اسم الله قوة خارقة بحيث لا يمكن لأحد أن يموت دون أن يكون قد حلّ معضلة الحياة. لذلك ظل يصرخ طالباً من الحية أن تخرج إليه. واخيراً خرجت الحية من حجرها وهي على درجة كبيرة من الهزال والضعف لكثرة ما نالها من العذاب والكآبة والجوع...

فسألها الحكيم:

«كيف حالك بعد غيبتي الطويلة عنك»؟؟...

فأجابته:

الحمد لله، يا سيدي، إنني بألف خير.

إلا أن الحكيم عاد فسألها:

ولكنني أرى أثر الهزال والضعف بادياً عليك. فماذا حدث لك حتى أصبحت على هذا الحال؟!...

فردت عليه الحية قائلة بخجل:

منذ أن لقنتني تعاليمك المقدسة صممت على اتباعها بكل أمانة وإخلاص. فلم أعد أؤذي أحداً وأصبحت اكتفي من القوت بالأعشاب لذلك فقد نحل جسمي بعض الشيء.

فأجابها الحكيم:

لا اعتقد أن تغيير الغذاء هو الذي أوصلك إلى ما أنت عليه. فكرّي في الأمر. لا بدّ إن هنالك سبباً آخر.

فتمهلت الحية قليلاً ثم صارحته قائلة:

آه، نعم. الآن تذكرت. فمنذ رحيلك بدأ الصبية يعاملونني معاملة سيئة ويلحقون بي الأذى الشديد. ولكن سامحهم الله. فهم لا يعرفوا إنني بعد سماعي تعاليمك المقدسة قد صممت على عدم التعرض لأحد منهم بعد اليوم.

فما كان من الحكيم إلا أن تبسم لسذاجتها وأجابها قائلاً: يا لك من صديقة غبية!. لقد أوصيتك بألاّ تؤذي بعد اليوم. ولكنني لم امنعك من التكشير عن انيابك في وجه من يقترب منك لتعذيبك وامتهان كرامتك...

وختم راما كريشنا مثله قائلاً:

كذلك أنتم، يا من يعيشون في هذا العالم، لا تتسببوا بإلحاق الأذى بالآخرين. ولكن لا تدعوا الآخرين يدوسونكم بأقدامهم!...

*

الفصل التاسع

احترموا الجوهر والشكل...

احترام الجوهر وتقديره يجب ألا يقلل من احترامنا وتقديرنا للشكل. كذلك احترامنا للشعور يجب الا يقلل من احترامنا للرمز.

*

إن لب حبة الأرز هو الشيء الجوهري والضروري لظهور السنبلة ونموها. ولكن إذا نزعنا عن حبة الأرز قشرتها الخارجية وزرعناها في الأرض فإن الحبة تموت ولن تنبت السنبلة. كذلك العبادات والطقوس الدينية فهي ضرورية لنمو الإيمان في قلوبنا واستمرار جوهر الدين.

*

إن جسم البقرة مليء كله بالحليب بفعل الدورة الدموية. إلا أنه لا يمكننا الحصول على حليبها إذا ما ضغطنا على قرنها أو أذنها بل علينا أن نضغط على ثديها من أجل الحصول على الحليب. كذلك، فبالرغم من أن الله موجود في كل مكان من هذا العالم، إلا أن وجوده لا يتجلّى بشكل عميق إلا داخل الأماكن المخصصة لعبادته. إذ إن أجواء هذه المعابد المقدسة مليئة بصلوات وأدعية المؤمنين من السلف الذين افعموها بروحانية كبيرة تهز مشاعر الداخلين الجدد إليها لتأدية صلواتهم ورفع تضرعاتهم إلى خالق هذا الكون.

*

الفصل العاشر

الله موجود في داخلكم...

الذين يجدون الله داخل قلوبهم يجدونه أيضاً في أماكن العبادة. أما الذين لا يجدونه داخل قلوبهم فلن يجدوه لا في أماكن العبادة ولا في أي مكان آخر مهما حاولوا وجدّوا في التفتيش عنه.

*

إذا طفت جميع أنحاء المعمورة فلن تجد الدين الحقيقي لأنك تبحث عنه خارج ذاتك. فالدين مكانه القلب. والإنسان الذي لا يجد الدين في دخيلة نفسه لن يجده خارجها مهما كثرت جهوده وتعددت محاولاته.

*

انت تفتش عن الله؟!... إذن فتش عنه في الإنسان. لأن عظمة الله تتجلى في الإنسان أكثر من أي مخلوق آخر. فإذا عثرت على رجل امتلأ قلبه بحب الله وما أن يذكر اسم الله أمامه حتى يغمى عليه، فعندها تأكد أن الله قد حلّ في قلب هذا الرجل.

*

إن معاشرة الرجال الأتقياء والحكماء في الوقت نفسه خطوة رئيسية هامة على طريق التقدم الروحي.

*

إن الله لا يلامس إلا النفوس البسيطة الخيّرة ولا يتجلّى إلا فيها. غير أن الناس لا يعودون إلى بساطتهم وعفويتهم إلا بعد أن يكونوا قد اكتووا بنار التجارب المؤلمة واكتسبوا الإدراك والحكمة. لذلك أقول لكم: حذارا كونوا أتقياء ولا تكونوا بلهاء!...

*

قبل أن نتمكن من تحويل الحديد إلى فولاذ علينا أن نحمّيه في الكور مرات عديدة وأن نهيل عليه المطارق طويلاً وعندها فقط نستطيع أن نكيّفه كما نريد وأن نصنع منه سيفاً قاطعاً مثلاً...

كذلك الإنسان المتعبد يجب أن يكتوي بنار العذاب ويتعرض لشتى أنواع الاضطهاد البشري حتى يصبح في النهاية رجلاً تقياً متواضعاً وأهلاً للدخول في ملكوت الله.

*

الفصل الحادي عشر

سلاسل الروح...

إن الله لا يتجلّى في النفوس المليئة بالكراهية والخجل والخوف. فهذه المشاعر الثلاث، مضاف إليها التعصب الديني والعرقي والطبقي، هي السلاسل الحقيقة التي تكبّل الروح الإنسانية وتمنعها من الانطلاق في ملكوت الله الفسيح.

*

اهداني أحد الأصدقاء ذات يوم كتاباً من الكتب التي يسمونها «الكتب السماوية» وطلب مني أن أبدي رأيي بما جاء فيه من تعاليم. فطلبت منه ان يقرأه عليّ وأن يشرح لي بعض ما ورد فيه. هل تصدق؟!. إن الشيء الوحيد الذي يتحدث عنه هذا الكتاب من أوله إلى آخره هو الخطيئة، ولا شيء سوى الخطيئة!... إن الإنسان الضعيف العقل الذي يردّد دائماً بينه وبين نفسه: «أنا إنسان مستعبد» ينتهي بأن يصبح مستعبداً حتماً ذات يوم.

كذلك الإنسان الذي يردد باستمرار: «أنا رجل خاطىء» ينتهي بأن يصبح خاطئاً بالفعل.

*

علينا أن نظل دائماً يقظين وفاعلين. لأننا عندما نستسلم للكسل والبطالة والفراغ فإن جميع الأفكار المزعجة والضارة تدخل إلى عقولنا وتشل نفوسنا وهممنا.

*

الفصل الثاني عشر

الخوارق والمعجزات

تجنبوا مخالطة الذين يقومون باجتراح العجائب وصنع المعجزات لأنهم ضلوا عن طريق الحقيقة. إن أرواحهم أصبحت أسيرة لشباك طاقاتهم الخفية التي هي في حقيقتها فخاخ على طريق الرحلة الطويلة إلى الله.

إن بعض من لديهم طاقات خفية يحظون بإعجاب كبير من الناس ويتمتعون أحياناً بمراكز اجتماعية مرموقة. وهم غالباً ما يستغلون هذه الطاقات ليوهموا الناس بأنهم معلمون روحيون كبار (Gouru) وبالتالي يستدرجون إليهم الأتباع والأنصار. إن الذين يلعبون هذه اللعبة الخطرة أشبه بمحظيي البلاطات: إنهم يبيعون أنفسهم من أجل غايات سخيفة كجمع المال والشهرة والملذات الأرضية. إن مثل هذه الأعمال مضرة للجسد والعقل والروح وانحراف عن الطريق القويمة المؤدية إلى الله.

*

كان أخوان يعيشان، ذات مرة، تحت سقف منزل واحد. فترك البكر منهما المنزل الأبوي وراح يجوب العالم باحثاً عمن يستطيع أن يعلّمه طريقة صنع الخوارق والمعجزات لأنه يريد أن يصبح «سانياسين»[1]...

(1) «السانياسين» في اللغة الهندوكية هو الرجل الزاهد المتنسك الذي يقوم أحياناً بأعمال خارقة.

وبعد غياب طال اثنتي عشرة سنة عاد إلى مسقط رأسه فخاطبه أخوه قائلاً: «هيا، اخبرني ماذا استفدت من غيابك عنا طيلة هذه المدة»!... فأجابه الأكبر:

«تعال معي لأريك ماذا استفدت»!...

ثم اصطحبه إلى نهر عريض يقع خارج البلدة. فاجتازه من الضفة إلى الضفة دون أن تبتل قدماه بالماء!... فما كان من الأصغر إلا أن استأجر قارباً وعبر به النهر إلى الضفة الأخرى. ثم نقد صاحبه روبية واحدة وقفز منه إلى حيث كان شقيقه الأكبر بانتظاره. فبادره قائلاً:

«يا شقيقي العزيز، لقد تحمّلت كل هذه المتاعب والمشقات طيلة اثنتي عشرة سنة من أجل الحصول على علم لا تساوي قيمته قطعة نقود صغيرة؟!».

*

زارني ذات يوم «يوغي»[1] كبير يدعى «غيريجا» بينما كنت منصرفاً لبعض الرياضات الروحية الصارمة في إحدى الغابات. وبعد أن تحدثنا طويلاً هممت بالإنصراف عائداً إلى صومعتي. فما كان منه إلا أن رفع يده اليمنى في الفضاء فخرج منها نور أضاء لي طريق الصومعة. ولكنني نصحته بأن يكف عن استخدام هذه القوى الخفية وأن يوجه عقله نحو التفتيش عن الحقائق الروحية الكبرى. والحمد لله أنه عمل بنصيحتي وترك هذه الأمور الخطرة والضارة له وللناس.

*

انصرف أحد تلامذة راما كريشنا ذات مرة إلى تعلم استخدام

---

(1) «اليوغي» هو الذي توصل بواسطة تعاليم «اليوغا» إلى اجتراح بعض الأعمال والأمور الغريبة.

القوى الخفية وأصبح بإمكانه أن ينقل أفكاره إلى الآخرين بواسطة ما يسمونه الحاسة السادسة Telepathie. فعاد إلى معلمه وقص عليه خبرته الجديدة. فما كان من راما كريشنا إلا ان أنبه قائلاً: يجب أن تخجل من نفسك، يا بني، على اضاعة وقتك في مثل هذه الأمور التافهة أن هذا العلم لا ينفع من يعلمه ولا يضر من يجهله.

*

الفصل الثالث عشر

عظمة التواضع

إنه لأمر في منتهى الغباء أن ندّعي بأننا اناس اذكياء، بل ومتفوقون في ذكائنا. فطائر الزاغ (هو طائر صغير شبيه بالغراب) يعتبر نفسه ذكياً جداً على طريقته... وهو مقتنع بحدة ذكائه كل الاقتناع إذ أنه لا يترك مجالاً لأحد كي يوقعه في الفخ. كما أنه يتمتع بقدرة فائقة على الإفلات من أي خطر يحدق به. وهو، بالإضافة إلى هذا كله، ماهر جداً في سرقة طعامه. ومع هذا فهو لا يدري كم هو جدير بالشفقة لكونه يتغذى من الأوساخ...

كذلك فإن بعض الناس، ممن يعتبرون أنفسهم أذكياء جداً، لا يعرفون أنهم أتعس المخلوقات وأكثرهم حرماناً من معطيات الحياة الحقيقية...

*

الرجل الكبير حقاً هو الرجل المتواضع. فالهضاب والجبال المرتفعة لا تصلح للزراعة. أما الأراضي المنخفضة فهي التي تنتج الأغلال والحبوب لأن مياه الأمطار تتجمع فيها.

*

السنابل المليئة بالحبوب رؤوسها دائماً محنية نحو الأرض. أما السنابل الفارغة فرؤوسها دائماً منتصبة. كذلك الرجال الذين امتلأت عقولهم بالحكمة فهم دائماً مطرقو الرؤوس ومتواضعون. أما الجهال والمغرورون فرؤوسهم دائماً شامخة في الهواء.

*

بين التواضع والضعة فرق كبير. إن بعض الناس، لفرط حرصهم على الظهور بمظهر التواضع، تراهم يرددون باستمرار: «لسنا سوى ديدان تزحف على الأرض». ولكنهم بمقارنتهم أنفسهم بالديدان ينتهون بأن يصبحوا ضعيفي العقول مثلها. لذلك لا تتركوا الضعف يتسرب أبداً إلى قلوبكم، لأن الضعف إذا ما تغلغل في داخل نفوسكم يصبح أكبر عائق في سبيل تقدمكم الروحي. فكما يفكر الإنسان كذلك يكون.

*

أرجوك يا إلهي أن تجعلني إنسى إنني من «البراهمة»[1] وان الآخرين هم من أصل وضيع. لأنهم أنت ولكن بأشكال مختلفة.

*

دخل الغرور يوماً إلى قلب «نارادا»[2] فظن نفسه قد أصبح أكبر متعبد لله على وجه هذه الأرض. وعلم الله ما في دخيلة نفسه فقال له: «آمرك بأن تتجه إلى ذاك المكان. ودلّه عليه. وهنالك ستجد عبداً من عبادي الصالحين اريدك أن تتعرف عليه». فتوجه «نارادا» إلى المكان المحدد وإذا به يجد فلاحاً ينهض كل يوم في الصباح الباكر فيذكر اسم الله ثم يأخذ محراثه ويتوجه لحراثة حقله ويعود إلى منزله

---

(1) البراهمة في الهند هم الطبقة الاجتماعية المتميزة وإليها ينتمي راما كريشنا وغاندي ونهرو وسواهم من عظماء الهند.

(2) قديس هندي اسطوري بمرتبة الأنبياء.

في المساء فيتناول عشاءه ثم يذكر اسم الله من جديد وينام. فتساءل «نارادا» بينه وبين نفسه: كيف يكون هذا الفلاح عبداً صالحاً في عين الله وهو مشغول طيلة يومه بحراثة الأرض؟! وبعد تأمل طويل خاطب الله وأخبره بانطباعه عن هذا الشخص. فأجابه الله: «نارادا»، خذ هذه الكأس الطافحة بالزيت وطف بها حول المدينة. ولكن حذار أن تسقط منها نقطة واحدة». ففعل «نارادا» ما أمر به ثم عاد الى الله الذي سأله «كم مرة فكرت بي وأنت تطوف بهذه الكاس»؟ فأجابه «نارادا»: في الحقيقة لم أفكر بك البتة. إذ كيف تريدني أن افكر بك وفكري محصور كل الوقت بهذه الكاس كي لا تقع منها نقطة واحدة»؟! فخاطبه الله قائلاً: «إذا كنت قد نسيتني كلياً وأنت تطوف بهذه الكاس فما قولك بهذا الفلاح الذي رغم مسؤولياته العائلية تجاه زوجته وأطفاله وحقله يذكرني مرتين في اليوم»؟!...

*

الزهو الذي يعبر عن انتصار الروح ليس زهواً. والإهانة التي تحطم غرورنا وأنانيتنا ليست إهانة.

*

لكي تحصلوا على النعمة الإلهية يجب أن تكونوا بسطاء وعفويين كالأطفال. اطردوا الغرور المتراكم في نفوسكم وقلوبكم بسبب ثقافتكم الأرضية وانظروا إلى تفاهتها بالنسبة للحقيقة الإلهية الكبرى. يجب أن تعودوا إلى براءة الأطفال كي تدركوا الحقيقة الكونية.

*

عندما يتحول البرعم إلى ثمرة فإن الأوراق المحيطة به تتناثر تلقائياً من حوله. كذلك عندما ينمو الله في ذاتنا فإن جميع أنواع ضعفنا البشري تذوي وتتساقط.

*

الفصل الرابع عشر

طرق العبادة

سأل أحدهم ذات يوم راما كريشنا: «هل علينا أن نصلي لله بصوت خافت أم بصوت مرتفع»؟...

فأجابه: صلي كما يحلو لك وكن متأكداً من الله سيسمعك. لأنه يسمع حتى دبيب النملة على الأرض.

*

عندما يتحد الفكر والكلام في الصلاة لطلب شيء معين برغبة صادقة حارة فإن الصلاة تستجاب حتماً. أما الصلاة التي تخرج من شفتي رجل يجهر قائلاً: «إن كل ما أملكه هو لك يا رب» بينما هو في قرارة نفسه يتمتم: « إن كل ما أملكه هو لي». فإن مثل هذه الصلاة تذهب هباء وتغضب الله أكثر مما ترضيه.

*

كونوا صادقين مع أنفسكم ومنسجمين مع أفكاركم وقناعاتكم. اعملوا كما تفكروا وأنا أؤكد لكم انكم ستحصلون على ما تريدونه. صلوا لله بقلب بسيط ومتواضع. وعندها تستجاب جميع رغباتكم وحاجاتكم.

*

لا تتركوا أفكاركم وهمومكم الأرضية تستحوذ على عقولكم وقلوبكم. اعملوا في الوقت المناسب ما هو ضروري لاستمرار أموركم المعيشية وركزوا أفكاركم دائماً على خالقكم.

*

الفصل الخامس عشر

كما يفكر الإنسان كذلك يكون

إن التقدم الروحي للإنسان يتأتى من وضعه الفكري والعقلي، وليس من الأعمال الخارجية التي يقوم بها. إنه نتيجة قناعات ذاتية وليس مجرد طقوس وصلوات يؤديها بشكل آلي روتيني.

كان صديقان يتنزهان ذات يوم في شوارع المدينة فمرا بجانب ساحة عامة تجمهر فيها عدد من الناس للاستماع إلى شروحات أحد الوعاظ عن تعاليم «البهاغافاتا بورانا»[1]. فقال أحدهما لصاحبه: «هيا بنا نستمع إلى شرح الكتاب المقدس». فأجابه الثاني: «ما الفائدة من هذه الترهات... هيا بنا نذهب إلى إحدى دور المومسات ونستمتع بمعاشرتهن». ولكن الأول رفض هذا الاقتراح وانضم إلى الجموع لسماع الكتاب المقدس بينما توجه الثاني إلى إحدى دور البغاء، إلا أنه لم يعثر هناك على مومس تعجبه، فقال في نفسه:

«يا ليتني لم آت إلى هذا المكان. لا شك في أن صديقي الآن في منتهى السعادة وهو يستمع إلى أقوال الله وشروحات «البهاغافاتا بورانا». وهكذا، فبالرغم من وجوده في مكان موبوء كانت أفكاره متجهة إلى الله. أما الثاني، فبالرغم من أنه يستمع إلى أقوال الكتاب

(1) كتاب مقدس عند الهندوك.

المقدس فإن قلبه كان مليئاً بالضجر وكان يردد بينه وبين نفسه: «يا لي من رجل غبي لأنني تركت صديقي يذهب وحده إلى دور المومسات. لا شك أنه في هذه اللحظة يستمتع بملذات كبيرة». إن هذا الشخص الأخير كان موجوداً بجسمه فقط في المكان الذي يتلى فيه الكتاب المقدس. أما أفكاره فكانت في المكان الموبوء. وبالرغم من أنه لم يذهب بجسده إلى هناك إلا أنه كان يرتكب المعصية بالفعل لأن عقله كان منغمساً في الشهوة.

*

كان رجل متنسك (سانيا سين) يقضي نهاره كل يوم تحت ظل شجرة يعلّم الناس الفضيلة والتقوى. كما انه كان يعيش حياة زهد فلا يشرب إلا الحليب ولا يأكل سوى الأثمار. وكان يعتقد بينه وبين نفسه إنه بهذا الاسلوب من الحياة الذي ينتهجه قد بلغ حداً كبيراً من القداسة والكمال.

وكانت امرأة مومس تعيش معه في نفس القرية وقد اتخذت من الزنى مهنة تكسب منها قوتها اليومي. فكان الناسك يأتي إليها كل يوم ويؤنّبها على سلوكها المتهور ويحذرها من ان مصيرها في النهاية إلى جهنم...

فكانت المسكينة، بعد انصرافه، تذرف الدموع وتبتهل إلى الله طالبة منه أن يخلصها من هذه الحياة التعيسة التي اضطرتها ظروف فقرها لأن تحياها.

وبعد ردح من الزمن توفي الرجل الناسك والمرأة الزانية. فحضر الملائكة ليأخذوا المرأة إلى الجنة، والناسك إلى جهنّم!!...

فاحتج الناسك على هذا التصرف المجحف وخاطب الملائكة بحدة قائلاً:

كيف تصنعون بي هذا؟! ألم أقضي حياتي وأنا أعلم الناس الطهارة واجتناب الخطيئة. فبأي منطق أساق أنا إلى النار بينما تقاد هذه المرأة الخاطئة إلى الجنة؟!

فأجابه الملائكة:

صحيح ان هذه المرأة قد قضت حياتها في الخطيئة، ولكنها كانت تتجه دائماً إلى الله طالبة منه الخلاص مما هي فيه. وها هي الآن قد حصلت على ما كانت تطلبه. أما أنت فقد قضيت حياتك وأفكارك متجهة دائماً نحو خطايا الآخرين. فكنت لا ترى أمامك سوى الخطيئة. لذلك جئنا لنأخذك إلى المكان المخصص للذين لا يرون سوى الخطيئة...

الفصل السادس عشر

وحدة الأديان

إن الله واحد في جميع الديانات والمذاهب ولكن اسماءه فقط تختلف. فالماء الذي هو نفسه في أي مكان من العالم تطلق عليه أسماء مختلفة باختلاف الشعوب. ففي اللغة البنغالية يسمونه «جال Jal» وفي اللغة الهندية اسمه «باني Pani» أما البريطانيون فيسمونه «ووتر Water» الخ... الخ... إن عدم تمكن البشر من فهم لغات بعضهم البعض يجعل عملية التفاهم بينهم أمراً في غاية التعقيد والصعوبة. فإذا ما تجادل أحدهم مع الآخر ليبرهن له أن الماء هو «جال» أو «باني» أو «ووتر» فإن هذا الجدال يكون أمراً في منتهى العقم والسخرية. كذلك فإن نفس الشيء يمكن أن يقال عن الناس الذين يتجادلون ويتخاصمون باسم الدين.

*

لو سألتني أي دين يجب أن تعتنق لقلت لك: اعتنق الدين الذي يعجبك. لأن جميع الأديان هي نفسها في النهاية. والجاهل وحده يتعصب لدين معين منها. أن جميع الأديان أشكال مختلفة لجوهر واحد.

في معمل للفخار تجد أواني مختلفة بأشكال مختلفة: جرار،

صحون، مزاهر، أباريق الخ... ولكنها جميعاً مصنوعة من طوب واحد. كذلك الله. فهو واحد في جميع الديانات ولكنه يعبد بأشكال مختلفة وأسماء مختلفة تبعاً لاختلاف الشعوب والبلدان والعصور.

*

كما أنه بإمكاننا أن نصعد إلى الطابق العلوي في منزل شاهق بواسطة درج أو سلّم أو حبل نتسلقه أو أية وسيلة أخرى، كذلك فإن طرق الوصول إلى الله متشعبة ومتعددة. وكل دين في هذا العالم يدلنا على طريق للوصول إليه تعالى، شرط أن نسلك هذه الطريق بقلب عامر بالصدق والإيمان. لذلك أقول لكم: كونوا مخلصين لدينكم ولكن لا تقولوا أبداً ان دينكم أفضل من الأديان الأخرى.

*

الأديان جميعها طرق ووسائل للوصول إلى الله. ولكن الأديان ليست هي الله.

*

الرجل المتعصب المقتنع بأن دينه أفضل من جميع الأديان الأخرى يتحدث ويجادل باستمرار عن هذا الدين بلهجة كلها ضوضاء وحدة. ولكن عندما يمتلىء قلبه بالإيمان الحقيقي ويضيء عقله بالحكمة المشرقة فإن جميع أشكال مشاحناته ومجادلاته الدينية تختفي.

*

عندما يكون الإنسان صالحاً ومخلصاً فإن أي دين يقوده إلى الله. فـ«الشاختيون» و«الفيدانتيون» و«البرهمانيون»[1] يمكنهم جميعاً الوصول إلى الله. وكذلك اتباع الديانتين المسيحية والإسلامية، شرط أن يكونوا مخلصين لدياناتهم. هنالك بعض الأغبياء من مختلف

---

(1) فرق دينية هندوكية.

الديانات الذين يقضون معظم أوقاتهم في الجدل والمماحكة حول أي دين أفضل من الآخر. فترى «البرهماني» مثلاً يخاطبك قائلاً بإصرار: إذا أنت لم تعبد إلهنا «كريشنا» فلا أمل لك بالخلاص!... أو ليس لك أي رجاء إذا أنت لم تمجّد الهنا «كالي». كما أن بعضهم لا يتورع عن تهديدك بالهلاك والدمار إذا أنت لم تعتنق ديانته الإسلامية أو المسيحية. الخ... الخ...

إن الزعم بأن هنالك دين واحد صحيح دون سائر الأديان لأمر في منتهى الغباء. وهو، على كل حال، موقف إنساني بغيض. فجميع الأديان هدفها واحد: الإيمان بالله. كما أن هنالك أناس غارقون في الجدل حول ما إذا كان لله شكل أم أنه بدون شكل!!... وأحياناً تصل بهم المناقشات العقيمة إلى حد الخصومة...

والواقع إنه لا يمكنك التحدث عن الله إلا إذا عاينته. والذين اوتوا هذه المقدرة الروحية الخارقة يعرفون جيداً إن الله ذو شكل وبدون شكل في آن واحد. وإن الكلمات ، مهما كانت بليغة، تظل عاجزة عن وصفه.

*

التقى رجل بصديقه ذات يوم فبادره قائلاً: هل تعلم؟!... بينما كنت ماراً قرب هذه الشجرة، هناك، رايت حيواناً غريباً لونه احمر!... فاجابه صديقه:

لقد رايته انا أيضاً. ولونه اخضر وليس احمر كما تقول. فتدخل ثالث وقال:

كلا، كلا. فقد رأيته انا كذلك ولونه اصفر!

وتجمع حولهم بعض المارة فاخذ كل منهم يصرخ بأنه هو الآخر قد شاهد الحيوان وإن لونه برتقالي وأزرق وبنفسجي الخ...

واحتدم النقاش بينهم وكادوا يشتبكون بالأيدي لولا إن اقترب

منهم رجل كان قد سمع كل ما دار بينهم من جدل فقال لهم: إنني أسكن تحت هذه الشجرة منذ مدة طويلة وأعرف جيداً هذا الحيوان الذي تتحدثون عنه. انكم جميعاً صادقون. فهذا الحيوان هو حرباء ويبدّل لونه في كل لحظة. فهو تارة أحمر وتارة أخضر وتارة أصفر الخ... كما انه أحياناً بدون لون البتة. كذلك الإنسان الذي تخلّى عن جميع مغريات الحياة وتعلق قلبه بمحبة الله فقط فإنه يدرك جيداً أن مختلف طرق التجلي التي يظهر بها الله أحياناً على عباده ليست في الحقيقة سوى أشكال وألوان مختلفة لجوهر واحد.

*

تجمع مرة أربعة عميان ليتفحصوا فيلا. فمد الأول يده إلى ساق الفيل وقال: الفيل هو عامود. ومد الثاني يده إلى خرطومه فقال: الفيل هو عصا أولها رفيع وآخرها غليظ. ولمس الثالث بطنه فقال: الفيل هو جرة كبيرة. وأخيراً تحسس الرابع اذنه وقال: كلكم مخطئون. الفيل هو مروحة كبيرة!... ثم أخذوا في الجدل حول صوابيه رأي كل منهم. وصادف إن رجلاً مبصراً مرّ بهم فسألهم فيما يتناقشون ويتجادلون؟!... فاخبروه بالأمر وجعلوه حكماً بينهم. فقال لهم:

ما من أحد منكم شاهد الفيل على حقيقته. فهو ليس بعامود ولكن ساقة تشبه العامود. وهو ليس بمروحة ولكن أذنه تشبه المروحة. وهو ليس بجرة كبيرة ولكن بطنه يشبه الجرة. وهو ليس بعصا ولكن خرطومه يشبه العصا. إن الفيل هو مزيج من كل هذه الأجزاء: أرجل وأذنين وخرطوم وبطن وغير ذلك...

وهكذا يتجادل الذين لا يرون إلا وجهاً واحداً من وجوه العزة الإلهية.

*

كانت ضفدعة صغيرة تعيش في بئر منذ زمن بعيد. فقد ولدت فيها وبقيت فيها. وذات يوم سقطت في البئر ضفدعة أخرى كانت تعيش على شاطىء البحر. فدار بينهما الحوار التالي:

- من أين أتيت؟

- من شاطىء البحر.

- البحر!؟... هل هو كبير؟.

- أوه! طبعاً إنه كبير جداً...

عندها مدّت ضفدعة البئر رجليها وقالت لضفدعة البحر:

- صحيح!؟ هل هو أكبر من هذه المسافة!؟...

- إنه أكبر بكثير، أجابتها ضفدعة البحر. ففغرت ضفدعة البئر فاها من فرط الدهشة، ثم التفتت إلى زميلتها سائلة:

- تعنين إنه بحجم هذه البئر التي أعيش فيها!؟...

فأجابتها ضفدعة البحر:

كيف يمكنك، يا صديقتي، أن تقارني البحر ببئرك هذه!!...

عندها استغرقت ضفدعة البئر في تأمل عميق، ثم قالت بينها وبين نفسها:

«كلا، لا يمكن أن يوجد ما هو أكبر من بئري، إن هذه الضفدعة الغريبة تكذب عليّ، دون شك، وتريد أن تتلاعب بعقلي. فيجب أن أطردها من بئري فوراً»...

وهكذا الأمر بالنسبة لبعض البشر من ذوي العقول الضيقة المحدودة. فهم قد جلسوا في قعر بئرهم الصغيرة ولم يعد بإمكانهم التصور أن آفاق هذا العالم أوسع وأرحب بكثير من البئر التي ولدوا وعاشوا فيها!...

*

إن العاديين من البشر هم أكثر الناس جدلاً في الدين وأقلهم ممارسة له. أما الإنسان المؤمن الحكيم، فحتى لو كانت حياته كلها تدين، فإنه لا يتحدث عن الدين إلا نادراً.

*

سألوا ذات يوم راما كريشنا: «إذا كان الله، كما تقول، هو وحده المهيمن على جميع الأديان الأرضية، فلماذا يبدو مختلفاً بالنسبة لكل دين»؟!...

فأجابهم:

«إن الله فعلاً هو واحد ولكنه متعدد الوجوه. خذوا مثلاً رب عائلة: فهو بالنسبة إلى الابن أب، وبالنسبة إلى الزوجة زوج، وبالنسبة إلى الشقيق أخ.. كذلك فإن الله يسمى ويوصف بعدة أسماء وصفات تبعاً للنظرة الخاصة التي ينظر إليه بها كل إنسان من خلال دينه»...

*

على الإنسان أن يكون مسيحياً بتقواه ومسلماً بتعبده وهندوكياً بمحبته الكونية لجميع المخلوقات.

*

القى راما كريشنا في دفعة من تلاميذه، كانوا على أهبة الانطلاق إلى مختلف أرجاء العالم لنشر تعاليمه، الخطبة التالية:

عندما ستغادرون هذا «الأشرم»[1] لتختلطوا بالناس يجب أن تكون في قلوبكم المحبة العميقة لكل واحد منهم. اختلطوا بهم بحرية تامة بحيث تصبحون جزءاً منهم. يجب الا تهزوا أكتافكم وتحتقروهم قائلين: «إنهم يعتقدون باله مجسّد وليس باله مجرّد»، أو :إنهم

(1) «الأشرم» كلمة هندوكية بمعنى الدير وفيه يعيش الرهبان الهندوكيون.

يعتقدون بالاله المجرد وليس بالاله المجسد». أو: «إنهم مسيحيون او هندوك أو مسلمون». إن الإنسان لا يفهم الله إلا بقدر ما يسمح له الله بأن يفهمه.

وليكن معلوماً لديكم إن البشر ليسوا جميعاً من مذهب واحد او معتقد واحد أو حتى ميول واحدة. لذلك عليكم أن تختلطوا بهم جميعاً بكل ما أوتيتم من قوة وصبر. كما يجب ان تحبوهم جميعاً كانهم اخوتكم لأنكم إذا فعلتم ذلك وعدتم إلى نفوسكم وضمائركم فستجدون قلوبكم مليئة بالفرح والسلام. لأنكم تكونوا قد وجدتم ذاتكم الحقيقية في قلوب الآخرين.

*

الفصل السابع عشر

شروط التقدم الروحي

إذا أدرك رجل به مس من روح شريرة حقيقة حالته فإن الروح الشريرة تفارقه للحال. كذلك عندما تدرك الذات العاقلة إنها متلبسة بالشهوات المادية وإنها إنما تخدع نفسها تتحرر فوراً من عبودية هذه الشهوات.

*

إن ملكوت السماوات لا يدخلها إلا المخلصون لافكارهم ومشاعرهم.

*

كما أن الفجر ينبىء بطلوع الشمس، كذلك فإن الإخلاص والتجرد والطهارة والاستقامة هي تباشير لحلول الله في قلب من يتمتع بهذه الصفات.

*

قال أحدهم: «إن طبيعة المادة لا يمكن أن تتغيره». فأجابه آخر: «عندما تلتهم النار الفحم الأسود فإنها تلتهم ايضاً سواده الطبيعي». كذلك عندما تلتهم نار المعرفة العقل البشري فإن طبيعة هذا العقل نفسها تتغير أيضاً ولا تعود فخاً أو عقبة في سبيل التقدم الروحي.

*

عندما نترك فيلاً ينطلق على هواه فإنه حتماً سوف يقتلع الاشجار المغروسة على طريقه. ولكن إذا لجمه مروّضه وضربه بالسوط على رأسه فسرعان ما يستكين هياجه ويهدأ على الفور.

كذلك فإن العقل غير المنظّم يتيه في تيارات ولجج من الأفكار اللامجدية. ولكنه سرعان ما يهدأ ويعود إلى اتزانه عندما يجد نفسه وجهاً لوجه أمام منطق الحقيقة.

*

عندما تأخذ سكيناً وتبدأ بتقشير بصلة فإنك كلما انتهيت من نزع قشرة منها تجد نفسك أمام قشرة جديدة دون أن تعثر في النهاية على اللب.

كذلك عندما تبدأ بتحليل ذاتك فإنك ستنتهي إلى اضمحلال هذه الذات ولن يبقى أمامك في آخر المطاف سوى الإدراك المطلق. وعندها فقط يصبح بإمكانك إدراك حقيقة العزة الإلهية لان انانيتك تكون قد اضمحلت وتلاشت كلياً.

*

لاحظت، بين الذين يأتون إليّ، إن البعض منهم يحب فعلاً الاستماع إلى أقوالي وتعاليمي بينما يشعر البعض الآخر بالضجر والملل. وأحياناً يوشوشون في آذان بعضهم البعض: «هيا بنا نتصرف»... أو: «إذا كنتم ترغبون في البقاء للاستماع إليه فسننتظركم خارجاً»...

إن عامل الوقت في مثل هذه الحالات عامل هام جداً. فقضية اليقظة الروحية في نفس الإنسان هي قضية وقت. أما دور المرشد فلا يتعدى دور المساعدة.

الفصل الثامن عشر

معجزة الإيمان

إذا كنت تملك فعلاً الإيمان القوي فإنك، ولا شك، سوف تحصل على ما تتعطش إليه.

*

الإيمان أساس كل تقدم روحي. يمكنكم الاستغناء عن كل شيء في هذه الحياة إلا عن الإيمان. فإذا كان إيمانكم بالله قوياً فإنكم تتحللون وتتحررون من جميع الخطايا حتى من أكثرها ظلاماً وأشدها قوة.

*

الناس يتألمون بسبب قلة إيمانهم بالله.

*

الذي عنده الإيمان عنده كل شيء. والذي ينقصه الإيمان ينقصه كل شيء.

*

خاطب راما كريشنا ذات يوم تلاميذه قائلاً:

لماذا تقولون إن العالم ليس سوى بئر عميقة يغرق فيها البشر. أو

انه غابة موحشة يتيه الإنسان فيها؟. لماذا لا تنظرون إلى العالم إلا على أنه مجرد مكان للعزاب؟. إن مثل هذه الكلمات يمكن قبولها إذا ما خرجت من أفواه المبتدئين. ولكنها على شفتي الرجل المؤمن ليست سوى ثرثرة في غير موضعها. فالمؤمن الحقيقي هو الذي يتعلق دائماً بحبال الله سواء في حالة الفرح أو في حالة العذاب. اطردوا من قلوبكم كل أثر للخوف لأن الله هو الذي يقود خطاكم.

مما تخافون؟! إن الله هو صديقكم. تمسكوا به جيداً وهو يقودكم في الطريق الصحيح. لا تخافوا من أشواك الغابات الحادة والسامة. انتعلوا نعالاً سميكة وسيروا بكل ثقة وتصميم وعندها لن تؤذيكم الأشواك ولن تدمي أقدامكم.

*

إن مجالات الفكر، مهما اتسعت، تظل ضعيفة ومحدودة. أما مجالات الإيمان فلا حدود لطاقاتها وآفاقها. ذلك ان الفكر بطبيعته لا يستطيع أن يذهب بعيداً ولا بد له من التوقف هنا، أو هنالك...

بينما لا حدود ولا حواجز تستطيع أن تقف أمام قوة الإيمان وزخمة. فأمامه تتلاشى الخطيئة وتتكشف الحقائق وتضمحل غريزة التمسك بتوافه الحياة وملاذها العابرة.

*

عندما نغرس نبتة صغيرة فإننا نسيّجها كي نحميها من الماعز والبقر وعبث الأطفال بها. ولكن عندما تنمو هذه النبتة وتصبح شجرة كبيرة فإن قطعان الماعز والبقر تأوي إليها لتتفيء تحت ظلالها وتقتات من أوراقها.

كذلك إيمانك، عندما يكون بعد في مرحلة طفولته، فعليك أن تحميه من التأثيرات السيئة والمخالطات الاجتماعية الفاسدة. ولكن عندما ينمو هذا الإيمان في قلبك ويصبح قوياً وقادراً داخل نفسك فما

من نزوة سيئة أو مخالطة رديئة تستطيع زعزعته أو إضعافه. بل أن الكثيرين من الناس الشريرين يصبحون متدينين لمجرد احتكاكهم بك.

*

أراد صديق للملك «فيبهيتانا»[1]، ملك سيلان، أن يجتاز البحر الفاصل بين سيلان والهند مشياً فوق الماء. فقال له الملك: «خذ هذا الطلسم وضعه في مكان ما من ثوبك وستجتاز البحر دون أية صعوبة، ولكن حذار أن تفتحه وتنظر إلى ما في داخله». فتناول الرجل الحجاب ووضعه في جيب قميصه ثم بدأ رحلته فوق مياه المحيط دون أن يصيبه اي مكروه. وبينما هو في عرض البحر استفاقت فيه غريزة حب الاستطلاع، ففتح الطلسم وإذا به يجد في داخله ورقة مكتوب عليها: «الله». فسخر من الأمر وقال في نفسه: «هل هذا هو كل السر»؟؟ وما إن دخل الشك إلى قلبه حتى ابتلعته الأمواج.

إن الإيمان ينقذنا من الهلاك. بينما الشك هو الموت بعينه.

كان ناسك «براهماني» يقيم في كوخ متواضع على إحدى ضفتي نهر كبير. وكانت امرأة من الفلاحين تؤمن به إيماناً عميقاً وتعتبره قديساً. فكانت تأتيه كل يوم بجرة من الحليب بعد أن تستاجر قارباً صغيراً ينقلها من الضفة إلى الضفة الأخرى. وكانت دائماً تصل إلى عنده في نفس الموعد. إلا أنها تأخرت ذات يوم عن موعدها المعهود فسألها الناسك: «لماذا تأخرت هذا الصباح»؟! فأجابته: «لم أجد قارباً جاهزاً فاضطررت إلى الإنتظار حتى حضر قارب آخر نقلني إلى عندك». فأجابها الناسك: «لو كان لديك الإيمان القوي بالله لاجتزت النهر مشياً على قدميك»..

وبما أنها كانت تؤمن به إيماناً مطلقاً فقد عملت بأقواله وأصبحت تأتي إليه بالفعل مشياً فوق المياه وتصل إلى عنده كل يوم في

(1) كان ملكاً وحكيماً في الوقت نفسه.

نفس الموعد. فتعجب الناسك من دقة مواعيدها كل يوم وسألها: «كيف أصبحت تأتين إليّ في نفس الموعد»؟!... فأجابته: «عملت بما قلته لي وأصبحت أجتاز النهر على قدمي». فلم يصدق الناسك أقوالها وقال لها: «هيا اريني كيف»؟. ثم انطلقا معاً إلى ضفة النهر فمشت المرأة في خضم النهر دون تردد أو خوف. وفيما هي في وسطه التفتت نحو الناسك فوجدته ما زال واقفاً على الضفة وهو يرتعد خوفاً من اللحاق بها. فصاحت به: «هيا اتبعني. الا تؤمن بما قلته لي»؟! ثم تابعت سيرها إلى الضفة الأخرى بينما ظل الراهب مسمّراً في مكانه.

إن سر كل معجزة يقوم بها إنسان على هذه الأرض هو إيمانه المطلق بالله وبقدرته التي لا حدود لها.

ان الحجر الصلد، حتى ولو بقي ألف سنة في قعر النهر، فإن المياه لا تتسرب إلى داخله. أما الفخّار بمجرد ملامسته للماء يتسرب الماء إلى داخله ويحوّله إلى وحل. كذلك فإن الرجل المؤمن لا يتسرب اليأس إلى قلبه حتى ولو تعرّض لأقسى أنواع التجارب والاضطهاد. بينما الرجل القليل الإيمان يفقد اتزانه وتخور قواه لأتفه الأسباب.

*

بعض الأطباء الروحيين، عندنا في الهند، يشفون مرضاهم بأن يطلبوا منهم أن يرددوا بكل تصميم وقناعة: «لسنا مرضى ولا نشكو من أية علة». ويبدأ المرضى يرددون ويعيدون وراءهم هذه الكلمات فيساعدهم الايحاء العقلي أو النفسي على التخلص فعلاً من أمراضهم. كذلك أنتم إذا كنتم مقتنعين بأنكم ضعاف روحياً ومعنوياً فإنكم تصبحون، بقليل من الوقت، ضعافاً بالفعل. ليكن واضحاً ومعلوماً لديكم إنكم تتمتعون بطاقات لا حدود لها. يجب أن تقتنعوا قناعة تامة بذلك وعندها ستجدون هذه الطاقات في نفوسكم دون أدنى ريب.

الفصل التاسع عشر

الرضوخ لمشيئة الله

إن الذي يرضخ لمشيئة الله بقلب بسيط مليء بالإيمان والمحبة لا يلبث أن يجد الله داخل قلبه وفي كل خلية من خلايا جسده.

*

إن قدم الذي وجد ملجأ له في الله لا تزل أبداً.

*

ليس لكم الخيار في أن تعيشوا في هذا العالم أو أن ترفضوه. إن الأمر متعلق كله بمشيئة الله. لذلك أقول لكم: اعملوا والقوا حملكم عليه. ماذا يمكنكم أن تفعلوا غير ذلك؟!...

*

كان ناسك شاب يتسول من منزل إلى منزل من أجل الحصول على قوته اليومي. وبما انه كان قد تنسّك باكراً فلم تكن له دراية كبيرة بأموره الحياة. وذات يوم طرق باب أحد المنازل فأطلت عليه امرأة شابة وناولته بعض الطعام. وقد لاحظ إن صدرها منتفخ. فسألها ما إذا كان في صدرها جرح وضعت فوقه الضماضات؟ فأجابته امها: «كلا يا بني، إنها تنتظر مولوداً وقد ملأ الله ثدييها بالحليب سلفاً كي

تتمكن من أوضاع الطفل عندما يولد. لذلك ظهر الانتفاخ في صدرها»...

فتعجب الناسك من هذا الأمر وقال في نفسه: «لن أتوسل قوتي بعد اليوم من أي مخلوق لأن الذي خلقني كفيل بأن يطعمني».

*

اتوا ذات يوم إلى راما كريشنا بمريض وطلبوا منه أن يباركه كي يشفى من مرضه. فأجابهم: ان البركة ليست من شأني بل هي نعمة من الله. لذلك انصحكم بأن ترفعوا صلواتكم ومطاليبكم إليه لأنه هو وحده الذي يبعد عنا المصائب والأوجاع.

*

سأل أحدهم راما كريشنا: «ما هي طبيعة الثقة المطلقة بالله؟». فأجابه: «إنها تشبه حالة الراحة النفسية التي يخلد إليها المزارع بعد يوم شاق من العمل في الحقل. فيتكىء على فراشه ويأخذ بتدخين «سيجارته» بهدوء وطمأنينة، انها نهاية حالات الضيق والهموم والوساوس.

الكتاب الثالث

الإنسان والله

الفصل العشرون

المحدود والمطلق

الشمس أكبر بملايين المرات من الأرض، ولكن بسبب بعدها عنا نراها كقرص صغير. كذلك الله لا حدود لذاته ولكن بعدنا عنه يمنعنا من تكوين فكرة واضحة عن شموليته.

*

إن حارس الليل لا يرى المارة إلا إذا وجه مصباحه نحوهم، ولكن أحداً من الناس لا يستطيع أن يراه إذا لم يوجه مصباحه نحو نفسه. كذلك فإن الله يرى كل واحد منا. ولكنه لا يظهر لنا إلا بمقدار ما يشاء هو أن يظهر نفسه لنا من خلال نعمه علينا.

*

إن الله موجود في ذات كل إنسان، ولكن ليس كل إنسان موجوداً في ذات الله. وهذا هو سبب شقاء البشر وتعاستهم...

*

من طبيعة المصباح أن ينير الظلمة، فبعض الناس يستعينون به لتحضير طعامهم، بينما يستخدمه آخرون لتزوير العملة مثلاً... وهنالك من ينتهز فرصة اضاءته كي يقرأ «البهاغا فاتا بورانا»[1] فهل

---

(1) كتاب مقدس عند الهندوك.

يمكن تحميل ضوء المصباح مسؤولية هذا كله؟!...

كذلك لا يمكن لمن يدعو الله أن يساعده على ارتكاب جريمة سرقة مثلاً أن يلومه لأنه لم يحصل منه على هذه المساعدة لاقتراف عمل شرير.

*

حظي قطيع من النمل ذات يوم بجبل من السكّر. فتذوقت كل نملة حبة منه ثم حملت أخرى إلى وكرها. وفي الطريق اقسموا جميعاً على أن يعودوا إلى الجبل لينقلوه كله إلى الوكر. الجبل بكامله إلى الوكر!!...

والرجال ايضاً يفكرون بنفس الطريقة. فالقليلون القليلون منهم تمكنوا من معاينة الله. ولكن حتى هذه القلة تعتقد إنها قد فهمت الله فهماً كاملاً وحققته في نفوسها تحقيقاً كاملاً.

أن جبل السكر لم يشعر اطلاقاً بوجود النملة فوقه. ولكن النملة مغتبطة جداً ومتخمة بالحبة التي اكلتها منه. كذلك «العقلانيون» من الرجال الذين يخادعون أنفسهم. فهم مغتبطون جداً من بعض «غرامات» العقل التي لديهم ويعتقدون إنهم قد ادركوا الله ادراكاً كاملاً واصبحوا يعرفون ما هو المطلق وما هو المحدود وتراهم يتحدثون بسهولة عن هذه الأمور كما لو ان لديهم أدنى فكرة عنها!...

أن «بوذا» وبعض الحكماء الكبار من أمثاله كانوا على الأقل نملاً من الحجم الكبير. وكل ما يمكننا أن نقوله عنهم أنهم قد اكلوا خمس أو عشر حبات من السكر.

إنه لأمر في منتهى السخف أن نقول بأن كائناً بشرياً ما قد فهم الله فهماً كاملاً. إذ ان ذلك يشبه قولنا بأن جبلاً من السكر كجبل «الهملايا» قد حملته واكلته نملة صغيرة!.

*

الفصل الواحد والعشرون

علاقة الإنسان بخالقه

اللذة والألم رفيقان طبيعيان للجسد. وجسدنا هو نتيجة أعمالنا في حياتنا السابقة[1]. لذلك على الإنسان أن يتحمل جسده طالما أن نتائج أعماله السابقة لم تنته بعد. إن الأعمى الذي يستحم في مياه «الغانج» يغسل جميع خطاياه ولكن عماه يظل ملازماً له لحين وفاته. ومهما كانت ردات فعل جسد الإنسان تحت تأثير اللذة والألم فإن عظمة المعرفة لا تتركه أبداً إذا كان إيمانه بالله عميقاً وقوياً.

*

لا يكفي أن نكون مقتنعين بوجود الله. فحتى معاينة الله ليست هي الدرجة العليا في الحياة الروحية. يجب أن تقوم بيننا وبين الله علاقات عائلية وأن تكون صلتنا به صلة مباشرة. بعض الناس سمعوا بوجود الله، وبعضهم عاينوه في بعض تجلياته ولكن القليلين منهم «ذاقوه».

أناس كثيرون شاهدوا الملك ولكن القليلين منهم استضافوه في منازلهم.

*

(1) يقصد إننا إذا كنا قد خلقنا بشراً فلأن اخطاءنا في حياتنا السابقة المتكررة هي التي جعلتنا نولد في مستوى الكائنات الأرضية. وهذا ما يسمونه اليوم بعقيدة «التقمص».

حار اثنان من تلامذة راما كريشنا في التوفيق بين الحرية الشخصية والهيمنة الإلهية فجاءا إليه لكي يحل لهما هذا التناقض. فأجابهما:

كيف يمكنكما أن تتحدثا عن الحرية الشخصية؟! إن كل شيء في هذا الكون مرهون بإرادة الله. وحريتنا مرتبطة بمشيئته كما ترتبط البقرة بمقودها. طبعاً، نحن كالبقرة أيضاً نتمتع بمقدار من الحرية. ولكن ضمن حدود معينة لا تتعدى طول المقود الذي يشد البقرة إلى معلفها.

فقاطعه أحدهما قائلاً: «إذن لا لزوم لما نقوم به من عبادات وتأملات ورياضات روحية من أجل التكفير عن ذنوبنا مادام أن كل ما نقوم به من أعمال مرتبط بإرادة الله»؟!...

فأجابه راما كريشنا:

إذا كان الله هو المهيمن على أعمالنا ـ وهو كذلك فعلاً ـ فإن هذا لا يلغي المجهود الفردي، لأن على الإنسان أن يستخدم بطريقة سليمة درجة القوة التي منحه إياها الله وإلا فالله لن يعطيه المزيد منها. لذلك على الإنسان أن يسعى دائماً للحصول على نعمة الله بمجهوده الشخصي كي يتحرر من جميع أخطائه السابقة لحياته الحالية.

*

يروي س. ن شاستري [1] الحادثة التالية التي جرت له مع راما كريشنا:

كان لي صديق هو في نفس الوقت راهب مسيحي في كالكوتا. ولكثرة ما سمع براما كريشنا طلب مني ان اعرفه عليه. فاصطحبته الى عنده وقدمته اليه قائلا: «هذا الرجل هو صديقي وهو في نفس الوقت راهب مسيحي. ولكثرة ما سمع عنك طلب مني ان اجمعه بك».

---

(1) أحد أصدقاء راما كريشنا.

فحياه راما كريشنا قائلاً:

«انني انحني بكل خشوع على قدمي يسوع». ثم دارت بينهما المناقشة التالية:

الراهب: لماذا تنحني على قدمي يسوع وماذا يمثل يسوع في نظرك؟..

راما كريشنا: انني اعتقد بأن يسوع هو احدى التجسدات الالهية.

الراهب: هل لك ان تشرح لي ماذا تعني بهذه العبارة؟

راما كريشنا: انها حالة من حالات حلول الله في المادةوظهوره بشكل محدود. الم تقرأ في كتابنا المقدس «البها غافاتا بورانا» كيف تجسد الله في «راما» و«كريشنا»؟ ان التجسدات الالهية لا حصر لها..

الراهب: عفواً اذا صارحتك بأنني لم افهم جيداً شروحاتك. فهل لك ان تكملها؟..

راما كريشنا: خذ مثلاً مياه المحيط. إنها مساحة من الماء لا حد لها. لكن هذه المياه، بفعل عوامل طبيعية معينة، تتجمد في بعض الأماكن ويصبح بإمكاننا الإمساك بها بل استخدامها في أمور عديدة. كذلك التجسد الإلهي. إنه شيء من هذا القبيل. فكما أن مياه الميحط لاحدود لها كذلك الله لا حدود لوجوده. وما يحصل احياناً هو إن جزءاً من هذا الوجود اللامتناهي يتخذ عبر العصور شكلاً محدوداً يظهر في بعض من نسميهم بالملمين الكبار أمثال يسوع الذي هو ظاهرة من ظواهر القوة الإلهية اللامحدودة في الجسم البشري المحدود.

الفصل الثاني والعشرون

الرجل المنقذ والرجل الكامل

الإنسان الذي توصل إلى الكمال الروحي يشبه عالم آثار اكتشف بئراً قديمة ملأتها الأجيال بالتراب والحجارة. أما المنقذ أو المخلص أو الرسول «L'Avatar» الذي هو «تجسيد إلهي» فيشبه مهندساً عبقرياً حفر بئراً جديدة في صحراء شاسعة قاحلة لم يسبق لغيره أن حفر بئراً فيها. إن الذين توصلوا إلى الكمال الروحي لا يستطيعون أن يقودوا إلى الخلاص إلا الذين تأصلت في نفوسهم وقلوبهم بذور التقوى وحب الخير. أما «المخلّصون» فينقذون حتى الذين لا يوجد في قلوبهم ذرة من المحبة.

*

عندما يحصل الفيضان فإن الأنهار والجداول والحقول تصبح كلها غطاء واحداً من الماء. ولكن عندما تمطر السماء مطراً خفيفاً فإن المياه تأخذ مجاريها الطبيعية عبر السفوح والوديان. كذلك عندما يظهر مخلّص يجسد الله على الأرض فإن جميع البشر يخلصون بفضل وجوده بينهم. أما الافراد الذي توصلوا إلى الكمال الروحي بمجهودهم الفردي فلا ينقذون إلا انفهسم.

*

في إحد الأماكن كانت تقع حديقة واسعة يحيط بها من جميع الجهات سور شاهق يمنع المارة من مشاهدة ما في داخلها. وذات يوم خطر لأربعة أصدقاء أن يكتشفوا سرها فجاؤوا بسلم طويل ووضعوه على جدار السور ثم صعد أحدهم إلى أعلى السلم. وما أن شاهد أشجارها الكثيفة المثمرة حتى اطلق صرخة فرح ثم القى بنفسه إلى داخلها. ثم صعد الثاني ففعل نفس الشيء وكذلك الثالث. أما الرابع فما أن وقعت عينه على جمال الحديقة وخيراتها حتى نزل أدراج السلم وانطلق في المدينة يحدث الناس بما شاهده. والله كهذه الحديقة المسوّرة. فالذين يعاينونه ينسون أنفسهم ووجودهم الفردي ويتهافتون عليه ناشدين السعادة في أحضانه. هذا النوع من الناس، وهم قلة نادرة على كل حال، هم القديسون والمتحررون روحياً. أما مخلّصو الإنسانية فهم اولئك الذين، بعد معاينتهم الله، يرفضون السعادة الفردية ويأخذون بتبشير الناس بما رأوا وشاهدوا كي يقودوهم جميعاً إلى الخلاص.

*

الفصل الثالث والعشرون

طريق المعرفة

قال راما كريشنا ذات يوم وقد تحلّق حوله تلاميذه: «إن الذي يرى الله هنا (ثم أشار إلى قلبه) يراه أيضاً هناك (مشيراً بإصبعه إلى العالم الخارجي). أما الذي لا يجد الله داخل قلبه فلن يجده في العالم المحيط به مهما تعددت محاولاته.

الإنسان المخادع والمنافق والمشاكس لن يجد الله مطلقاً لا في داخل نفسه ولا في خارجها.

*

قمت ذات يوم بزيارة لصديقي «تريلونغا . سوامي» وطرحت عليه السؤال التالي:

لماذا يتحدث الناس عن آلهة متعددة بينما لا يوجد في الحقيقة سوى إله واحد؟!... فصمت صديقي برهة ثم رفع سبابته، بعد أن أصيب بنوبة وجدانية طافحة بالبشر والسعادة، وخاطبني قائلاً:

إذا أردنا أن نكتشف الله عن طريق التأمل فإننا سنصل حتماً إلى الإقرار بوحدانيته. أما إذا خضنا لجج الجدل الفلسفي للوصول إلى هذه الحقيقة فإن وحدانيته ستضيع في خضم تعدد الآراء.

*

عندما نضع كمية من الأرز في قدر ونغليها بالماء فوق النار، فلكي نتأكد من نضوجها نكتفي بأخذ حبة منه ونفركها بأصابعنا وعندها نعرف إذا كانت الكمية كلها قد نضجت أم لا. فلا حاجة بنا إذن لأن نفرك جميع حبات الأرز كي نعرف مقدار نضوجها.

كذلك يمكننا أن نتأكد من حقيقة الوجود بدرسنا لعنصر أو عنصرين من عناصره.

فالإنسان يولد ويعيش ويموت. وكذلك الحيوان، وكذلك النبات...

فإذا ادركنا هذه الحقائق البديهية، أدركنا جميع الحقائق الأخرى، بما في ذلك حقيقة الأرض والشمس والقمر الذي ستؤول في النهاية إلى نفس المصير. وعندما ندرك أن هذا العالم هو مؤقت ووهمي فإننا سنفقد الرغبة في التعلق به وستتوق نفوسنا إلى الإنفصال عنه. إذ ذاك نتحرر من كل هوى ويصبح بإمكاننا إدراك حقيقة الله الذي هو أساس ومصدر كل شيء في هذا الوجود. والذين قدّر لهم التوصل إلى هذه المرتبة الروحية السامية يحيطون بجميع أسرار هذا الكون.

*

هنالك ثلاث طرق مختلفة للوصول إلى المعرفة: طريق «الأنا» وطريق «الأنت» وطريق «الأنا والأنت» فإذا سلكت الطريق الأولى فإنك ستجد نفسك في نهاية المطاف. وعندها سوف تدرك إن كل ما كان قبلاً هو كائن اليوم وسيكون هو نفسه في المستقبل. وبعبارة أخرى سوف تجد نفسك تردد: أنا كائن الآن وأنا ما كنت سابقاً وأنا ما سأكون إلى الأبد... أما الطريق الثانية فتقودك إلى الإقرار بوجود الله، وإن كل شيء هو ملكه.

وأما الطريق الثالثة فتؤدي بك إلى الاعتراف بوجود الله والاقرار بأنك عبده. وبالامكان تحقيق الله في الذات الإنسانية بواسطة أي من هذه الطرق الثلاث، شرط السير فيها حتى النهاية...

*

استيقظ رجل في ساعة متأخرة من الليل مع رغبة شديدة في التدخين. ولما لم يجد في منزله عود كبريت حمل في يده سراجاً وذهب إلى بيت جيرانه الذي يبعد عن بيته قليلاً وقرع بابهم. ولما فتح أحدهم الباب وسأله عما يريد أجابه بأنه يبحث عن عود كبريت كي يشعل سيجارته. فأجابه الرجل: «هل كان من الضروري أن توقظنا في هذه الساعة المتأخرة من الليل كي تشعل سيجارتك بينما بإمكانك أن تشعلها من السراج الذي تحمله في يدك»؟!.

كذلك فإن ما يفتش عنه الإنسان يملكه داخل نفسه ولكنه يضيع وقته في البحث عنه هنا وهناك...

*

لكي نكتشف الوجود المطلق علينا أن نصل إلى الإدراك المطلق.

*

كان بعض الطلاب والمريدين قد تجمعوا ذات يوم في منزل راما كريشنا وتحلقوا حوله للاستماع إلى تعاليمه. فسأله أحدهم:

هل لك أن توضح لنا ما يبدو انه تناقض في تعاليمك؟. أنت تزعم إنك بلغت مرحلة الاتحاد بالله، أي أنك أصبحت «أنت هو». ومع ذلك فانك عندما تتحدث إلى الناس تتحدث إليهم «عنه» وكأنك تتحدث عن شخص غريب عن ذاتك. بينما عليك أن تقول: «أنا هو» بدلاً من «أنا» و«هو» فلماذا هذه «الأنت» في حديثك عن الله؟!

فأجابه راما كريشنا:

إن ما تسألني عنه هو في النهاية قضية مسلك. فصحيح انني عاينت الله واتحدت فيه واصبحت الوجود المطلق والعقل المطلق والسعادة المطلقة إلا انه لا يمكنني أن أكون في هذا الوضع اللامحدود

وأنا ما ازال أعيش على هذا الكوكب المحدود. ذلك إنه عندما يتّحد الإنسان بالله اتحاداً كلياً يصبح في حالة من الوجود اللامتناهي. وهي حالة لا يمكن التعبير عنها إلا ضمن المحدود. لذلك فمن الطبيعي وأنا أتحدث إليكم عن الله أن أعبر عنه بلفظة «هو» أو أن اخاطبه بلفظة «أنت».

خذوا مثلاً السلّم الموسيقي. ولنفرض انكم تجاوزتم الدرجات الأولى: «دو»، «ري»، «مي»، «فا»... حتى بلغتم الدرجة السابعة والأخيرة. فماذا تفعلون بعد ذلك؟!... إنكم تعودون من جديد إلى البداية: «دو». وهكذا، فعندما يصل الإنسان إلى أعلى مراتب الحياة الروحية، مرحلة الصمت المطلق، فانه عندما يريد الكلام يبدأ بلفظة «دو». و«دو» هي الله...

*

إن من يريد أن يهب نفسه كليةً لله فسوف يبعث الله إليه بشخص مؤهل يقوده إليه. يجب الا يكون هنالك أدنى ريب حول هذه الحقيقة.

*

الفصل الرابع والعشرون

طريق المحبة

تكبر محبة الله في قلب الإنسان بقدر ما يقل تعلقه بالملذات الأرضية.

*

وعظ راما كريشنا ذات يوم تلاميذه قائلاً: لقد جئتم إلى هذا العالم بجسد بشري كي تعبدوا الله وتقتربوا منه بالمحبة والتقوى. فلماذا تهتمون بمئة ومئة موضوع آخر؟... أم تراكم تظنون إن مناقشاتكم الفلسفية ستوصلكم إلى قدر أكبر مما تملكون من الحكمة؟!.

الا ترون أن زجاجة من الخمر تكفي لاعطائكم النشوة؟. فلماذا التساؤل كم برميل من الخمر يوجد في القبو ما دام إن كل ما تطلبونه هو النشوة؟!.

*

وجه راما كريشنا إلى تلاميذه الخطبة التالية في موضوع العبادة فقال:

لماذا تتحدثون دائماً عن مدى عظمة الله وقدرته؟!

إذا كان طفل صغير يجلس في حضن والده فهل ترونه يجهر

بصوته على الناس كل الوقت: إن أبي يملك كذا من البساتين وكذا من البيوت وكذا من الأبقار... الخ... أم تراه يفكر بقوة رابطة المحبة التي تربطه بوالده؟ وهل هذا أمر مستغرب إذا رأينا أباً يطعم أولاده ويكسيهم ويؤمن لهم حياة مريحة؟!.

إننا جميعاً أبناء الله وهو ملزم باعطائنا ما نحن بحاجة إليه من غذاء وكساء وطمأنينة. فأي غرابة في هذا الأمر؟! إن أبناء الله المخلصين ليسوا أولئك الذين يفكرون كل الوقت في مدى عظمته وقدرته بل الذين يجعلون بينهم وبينه مودة وقربى. لأنكم إذا فكرتم كثيراً بقدرة الله وعظمته وجلاله وهيبته الخ... يصبح بالنسبة اليكم إلهاً غريباً عنكم وبعيداً منكم وبالتالي لا تعودون تعتبرونه أباً محباً رحيماً من السهل مخاطبته ومكاشفته بأموركم ومشاكلكم. فكروا بالله على انه قريب منكم وموجود في داخلكم وعندها يصبح بامكانكم الوصول إليه والتحدث معه بلغة الأبوة والصداقة. فإذا كان شخصان لا يعرفان بعضهما إلا معرفة سطحية فإن القواعد الشكلية تسود حديثهما. أما عندما تتأصل بينهما روابط الصداقة فإن قواعد اللياقة والمجاملة تزول ويصبح الحديث بينهما حديثاً عائلياً لا كلفة فيه ولا تصنع. وصلتنا بالله يجب أن تكون من هذا النوع.

شبه أحد الشعراء محبة الإنسان لخالقه بالنمر المفترس. فكما أن النمر يفترس الحيوانات الصغيرة، كذلك فإن محبة الإنسان لخالقه تفترس من نفسه جميع الآفات: كحب الظهور واتباع الشهوات المادية والركض وراء المال والجاه والمناصب وشهوة الانتقام الخ...

فعندما تكتمل محبة الله في قلوبنا فإن جميع نزواتنا الخبيثة تتلاشى وتزول.

*

وحدها المحبة تحل مشكلة الحياة. فطالما ان الأنانية ما تزال معششة في نفس الإنسان وفي عقله فسيظل يردد باستمرار: «أنا، أنا، أنا... كيف يجب أن أعيش... ماذا علي أن أعمل... كيف تطمئن نفسي إلى العالم المادي الذي أعيش فيه» الخ... الخ...

أما عندما تتعمق محبة الله في نفوسنا فإن «الأنا الشهوانية» تصبح «الأنا الإلهية» وعندها نتحرر من عبودية العالم المادي وإغراءاته الوهمية وتتكرس في نفوسنا محبة الله وحده. وهذا النوع من الحب هو الحب الوحيد الحقيقي الذي لا يخوننا ولا يزيغ نفوسنا وقلوبنا وعقولنا.

*

كثيراً ما تنتابنا الرغبة الجامحة لمعاينة الله ولكننا نجهل الطريق المؤدية إلى تحقيق هذه الرغبة. ان اقصر طريق للوصول إلى الله هي محبته.

*

إن الصخور الممغنطة تجذب إليها المراكب الصغيرة وتنتزع منها المسامير التي تشد اخشابها إلى بعضها فتتناثر هياكلها وتستقر في قعر البحر.

كذلك عندما تنجذب نفوسنا إلى «مغنطيس» الإدراك الكوني فان هذا الإدراك يحطم في لحظة واحدة انانيتنا وفرديتنا ويغرقهما في محيط المحبة الإلهية اللامتناهي.

*

يوجد ثلاثة أنواع من الحب: الحب الأناني والحب المتبادل والحب المجرد.

الحب الأناني هو أحد أنواع الحب. فالعاشق الأناني لا يبحث إلا عن سعادته الفردية حتى على حساب المعشوق.

أما في حالة الحب المتبادل فإن المحب لا يفتش فقط عن سعادته بل عن سعادة الشخص الذي يحبه أيضاً.

أما الحب المجرد فهو الحب الأسمى. فالذي يحب بهذه الطريقة لا يفتش إلا عن سعادة المحبوب ولا تهمه الآلام والمصاعب التي يتعرض لها بسبب هذا الحب.

*

إن عبادة الله خوفاً من نار جهنم أو من قصاص آخر... عبادة لا فائدة منها إلا للمبتدئين في ممارسة الحياة الروحية. إن بعض الناس كالمسيحيين والمسلمين والبراهمة الخ... لا يتحدثون إلا عن الخطيئة وهم يعتقدون ان الابتعاد عن الخطيئة هو جوهر الدين. لذلك تراهم يرددون باستمرار: «نرجوك، يا الله، أن تعفو عنا لأننا لسنا سوى بشر خاطئين»! ان هؤلاء الناس ينسون أو يجهلون أن الخطيئة هي الدرجة الأخيرة في الحياة الروحية. أما الدرجة الأسمى في الحياة الروحية فهي أن نحب الله كما نحب آباءنا وأمهاتنا.

*

كان ثلاثة أصدقاء يجتازون ذات يوم غابة موحشة. وفجأة اعترض طريقهم نمر كبير شرس. فصرخ الأول: «لقد هلكنا»! فرد عليه الثاني: إن الله، الكلي القدرة، سوف ينجينا من خطره، فلا موجب للهرب. لذلك فلنتوجه بدعائنا إليه لانقاذنا». فأجابه الثالث: «كلا يا أخي. لماذا تريد أن نزعج الله بطلب الحماية منه إذا كان بامكاننا أن ننقذ أنفسنا بوسائلنا الخاصة؟! فلنصعد جميعنا فوق هذه الشجرة القريبة منا وبذلك ننجو من الخطر». فالرجل الأول لم يكن قد آمن بعد بمقدرة الله الكلية التي تحمينا وتحضننا.

أما الثاني فقد كان رجلاً حكيماً لانه كان يدرك إن ما من عمل سواء أكان هذا العمل خلقاً أو وجوداً أو فناء إلا وهو من صنع الله وارادته.

وأما الرجل الثالث فقد كان «يوغياً» توصل إلى اسمى درجات المحبة الإلهية (الباختي).

وهكذا يتبين انه من طبيعة المحب أن يعتبر نفسه مسؤولاً عن الكائن الذي يحبه. لذلك فهو دائم الحذر لدفع الأذى عنه حتى ولو كان هذا الأذى مجرد شوكة صغيرة قد تدمي إحدى قدميه...

*

متفرقات

الركض وراء المال...

ما من شك إن للمال أهميته ما دمنا نعيش حياتنا الدنيوية. ولكن من الخطأ الإنصراف كلياً إلى تجميعه والاهتمام الزائد في تكديسه.

إن افضل موقف نتخذه من هذه الحياة هو الاكتفاء والقناعة بما تهبه لنا بصورة طبيعية.

لذلك أقول لكم:

لا تبدّدوا كل طاقاتكم في الاهتمام بهذه الأمور. إن الذين ينذرون حياتهم ونفوسهم لله وينشدون الراحة والطمأنينة في أحضانه لا تقلق أفكارهم الأمور المادية. فهم يضبطون مصاريفهم تبعاً لمداخيلهم. فإذا ما حصلوا على المال انفقوه بسهولة عفوية.

*

الثراء والمفاخرة...

ليس أغبى من الرجل الذي يفاخر بثرائه. فإذا كنت تنتمي إلى هذا الصنف من الناس، فاعلم جيداً أن هنالك من هم أكثر ثراء منك بألوف، بل بملايين المرات، بحيث تبدو إزاءهم وكأنك رجل متسوّل!...

فزجاج النوافذ يتصور نفسه إنه يضيء العالم عندما يقترب الشفق وتأخذ صفائحه بالبريق واللمعان. إلا أن غروره لا يلبث أن يتلاشى عندما يهبط الظلام وتبدأ النجوم بالظهور في كبد السماء. كما أن النجوم بدورها تعتقد إنها الوحيدة التي تنير هذا الكون. ولكنها سرعان ما تأخذ بالأفول أمام ضوء القمر وبهائه. والقمر،هو الآخر، يظن ان الأرض يملؤها السرور والحبور بفضل اشعته التي يرسلها إليها. ولكن ما ان تظهر الشمس حتى ينحسر ضوؤه وينطفيء بهاؤه ثم لا يلبث أن يختفي...

فإذا ما تأمل من ركبهم الغرور بهذه الأمثلة التي تضربها لهم الطبيعة فسوف يدركون، ولا شك، مدى بلاهتهم كلما همّوا بمفاخرة الآخرين بثرائهم وجبروتهم.

*

الناس لا يستطيعون ان يعطوا إلا مما عندهم

ارسل احد الحكماء ذات يوم خادمه إلى السوق بعد ان سلّمه جوهرة ثمينة وطلب منه الاستفسار عن قيمتها لانه يريد ان يبيعها. ونصحه أن يذهب أولاً إلى البقال. وما إن عرض الخادم الجوهرة على البقال حتى أخذها هذا منه وراح يتحسّس بيده ثقل وزنها. ثم التفت إلى الخادم وقال له: إنني أدفع لك ثمنها تسعة رؤوس من الباذنجان!...

فأجابه الخادم:

تشجع قليلاً، واعطني اكثر...

- كلا، أجابه البقال. لقد دفعت لك ثمنها اكثر مما تستحق. وهذا هو عرضي الأخير!...

فتبسم الخادم وعاد إلى معلمه وأخبره بعرض البقال.

- حسناً، أجابه الحكيم. اذهب الآن واعرضها على بائع الأقمشة:

فالأول ليس سوى بقال ومن غير المفروض فيه أن يعلم قيمة هذه الجوهرة.

فحملها الخادم إلى بائع الأقمشة. وبعد ان تفحصها هذا أجابه: إن الجوهرة ثمينة حقاً ويمكنني أن أصنع منها حلية جميلة. لذلك فإنني اشتريها منك بتسعماية روبية!...

فسأله الخادم:

الا تستطيع أن تزيد السعر حتى الألف؟!...

ـ هذا مستحيل، أجابه التاجر، إنها لا تساوي أكثر من هذا المبلغ.

فرجع الخادم إلى الحكيم وأخبره بما حدث له مع تاجر الأقمشة. فهز الحكيم رأسه ثم خاطبه قائلاً:

اذهب الآن إلى تاجر المجوهرات واعرضها عليه. فهو الرجل المختص بتقدير قيمة مثل هذه الجوهرة.

فذهب الخادم إلى تاجر المجوهرات. وما ان تفحص هذه الجوهرة وأمعن النظر فيها حتى قال للخادم: إنني ادفع لك ثمنها مئة ألف روبية!!...

*

شجرة «الكالباتاور»

كان رجل فقير يجتاز ذات يوم طريقاً جبلية وعرة تحت أشعة شمس محرقة... وأخيراً وصل إلى سهل فسيح وهو يلهث من كثرة التعب. فالتجأ إلى ظل شجرة وتمدد على الأرض ليأخذ قسطه من الراحة. وفيما هو مستلق على ظهره تمنى لو انه متمدد فوق سرير وثير كي ينام نوماً عميقاً هادئاً. وما ان خطرت له هذه الفكرة حتى وجد السرير إلى جانبه. فقد كان المسكين لا يعلم انه متمدد تحت

شجرة «الكالباتارو» (وهي شجرة مقدسة في الأساطير الهندوكية تمنح الإنسان كل ما يتمناه)!... وبالرغم مما اعتراه من الذهول والدهشة نهض ونام فوق السرير. ثم خطرت له خاطرة أخرى ففكر انه سيكون في منتهى السعادة لو حضرت إلى جانبه فتاة جميلة واخذت تدلك له قدميه المتعبتين... وفجأة ظهرت الفتاة التي تمناها إلى جانبه واخذت تدلك له قدميه. فشعر بغبطة زائدة. وبعد ذلك بقليل شعر بجوع شديد فقال بينه وبين نفسه: بما انني حصلت حتى الآن على كل ما تمنيته فلماذا لا أحصل على أكل شهي أسد به جوعي؟!... وللحال وجد أمامه مائدة مملوءة بشتى أنواع الأطعمة الشهية. وبعد أن اكل وشبع عاد فتمدد فوق سريره وأخذ يفكر بكل ما حصل له ذلك اليوم. وفيما هو مسترسل في تفكيره خطرت له فكرة غريبة. فقال في نفسه: ترى ماذا سيحصل لي إذا ما فاجأني الآن نمر كاسر وهاجمني؟!... وفجأة ظهر أمامه نمر كاسر شرس فهجم عليه ومزقه وأكله!...

إن مصير الناس في هذا العالم شبيه إلى حد كبير بهذه الأقصوصة. فإذا ما تمنيت أثناء تأملاتك وطلبت من الله بحرارة وإيمان الحصول على الأصدقاء والمال والجاه فان رغباتك لا بد من ان تتحقق بطريقة من الطرق... ولكن حذار! فوراء كل ما تتمنى الحصول عليه يختبيء النمر الكاسر. إن هذه الحيوانات المفترسة: المرض والحزن وفقدان المال والجاه الخ... تعذبنا ألف مرة أكثر من تهديدات هذا النمر المتربص بنا دائماً!...

*

لا تتسولوا من المتسولين!...

كان حكيم متصوف يعيش في إحدى الغابات القريبة من دلهي أيام حكم الملك «أكبر شاه» وكان الناس يفدون عليه بالعشرات والمئات

كل يوم للاستشارة بأفكاره والاسترشاد بتعاليمه. وبما انه كان فقير الحال فلم يكن باستطاعته الإنفاق على إطعامهم جميعاً، الأمر الذي كان يسبب له الكثير من الإحراج...

واخيراً قرر الذهاب إلى دلهي لمقابلة الملك كي يطلب منه مساعدة مالية لمجابهة هذا الوضع، إذ أن «أكبر شاه» كان مشهوراً بعطفه على الزهاد والحكماء والمتصوفين... وما إن دخل القصر حتى وجد الملك قائماً يصلي. فجلس ينتظره حتى يفرغ من صلاته. وفي فترة الانتظار هذه سمع «أكبر شاه» يجهر بدعائه قائلاً: «اسألك يا إلهي أن تعطيني المزيد من الثراء والأملاك والقوة»!... فما كان من الحكيم، بعد سماعه هذا الدعاء، إلا أن نهض وهمّ بالخروج لولا إن «أكبر شاه» أومأ إليه بأن يبقى. وبعد ان فرغ الملك من صلاته سأل الحكيم قائلاً: بما انك جئت لمقابلتي فلماذا هممت بالإنصراف قبل أن تحدثني عن موضوع المقابلة؟!...

فأجابه الحكيم:

لا اريد أن أزعج عظمتك بما جئت من أجله. إلا أن «أكبر شاه» «الح عليه بأن يفصح له عن حاجته. عندها صارحه الحكيم قائلاً:

يا سيدي هنالك أناس كثيرون يفدون علي طلباً للعلم والمعرفة. وبما انني رجل فقير وغير قادر على تحمل أعباء استضافتهم، فقد خطر لي أن اقصدك لطلب بعض المساعدة المالية.

فأجابه «أكبر شاه»:

ولماذا لم تعد راغباً في ان تطلب مني هذه المساعدة؟!...

فأجابه الحكيم:

عندما سمعتك تطلب من الله أثناء صلاتك أن يعطيك المزيد من الأملاك والمال قلت في نفسي: كيف اتسول من شخص هو نفسه

متسول؟!... فمن الافضل لي أن أتوجه إلى الله مباشرة للحصول منه على ما اريد أو أن أتدبر الأمر بنفسي!...

*

كل شيء «فيشنو» ولكن..

كان معلم يوغي كبير يعلّم تلميذه إن كل مخلوق في هذا الكون هو «فيشنو»[1] فتأثر التلميذ بهذه النظرية وتعلق بها الى حد كبير. وذات يوم بينما كان التلميذ سائراً في الطريق صادف فيلاً يقوده مروضه وهو يقترب باتجاهه. فصرخ فيه المروض: ابتعد، ابتعد!

عندها فكر التلميذ بنظرية معلمه فقال بينه وبين نفسه:

«لماذا ابتعد؟... إنني «فيشنو» والفيل أيضاً «فيشنو» فكيف يخاف «فيشنو» من نفسه؟!... لذلك صمم على البقاء حيث هو وجمد في مكانه.

وأخيراً وصل إليه الفيل فلفّه بخرطومه وقذف به بعيداً. مما سبب له جروحاً بالغة ورضوضاً في مختلف أنحاء جسمه... فقصد معلمه وسرد عليه كل ما حصل له ذلك اليوم.

فأجابه معلمه:

حسناً يا بني، إنك فعلاً «فيشنو» وكذلك الفيل. ولكن لماذا لم تستجب إلى تحذيرات مروضه بالابتعاد عن طريقه، مع انه هو الآخر أيضاً «فيشنو»؟!...

*

---

(1) إحدى التجسدات الإلهية عند الهندوك.

ما الفائدة؟!..

لا يمكنك أن تحصل إلا على ما تبحث عنه. وبإمكان أي شخص أن يحصل من الله على ما يطلبه. ان ابن الرجل الفقير المعدم، إذا ما أصبح قاضياً في المحكمة العليا مثلاً، فإن سروره سيكون كبيراً جداً بهذا النجاح الذي أحرزه. إذ ذاك سوف يهمس الله في اذنه قائلاً:

حسناً، اكمل هكذا...

ولكن عندما يبلغ هذا القاضي سن التقاعد فسوف يبدأ بالتأمل ورؤية الأشياء على حقيقتها. وعندها يأخذ بالتحسر على نفسه قائلاً:

ما الفائدة من كل هذا؟ ماذا تراني قد جنيت فعلاً طيلة حياتي؟!

حينئذ يعود الله ليهمس في اذنه من جديد:

هذا صحيح. فعلاً، ماذا جنيت؟!...

تعاريف يوغية

الراجا . يوغا

«الراجا ـ يوغا» هي ادراك الحقائق الروحية عن طريق العقل. ووسائلها: المنطق والتأمل والتركيز الفكري الذي يعتبر من أهم مستلزمات «الراجا ـ يوغا». فالفكر أشبه بنور المصباح: أقل نفحة شهوانية تجعله يهتز. أما إذا بقي بعيداً عن الأهواء والشهوات فانه يستعيد هدوءه وصفاءه التامين. وحالة الصفاء هذه هي الحالة اليوغية.

والفكر بطبيعته موزع ومشتت هنا وهناك وهنالك... فمن الضروري تجميع قواه وتوجيهها نحو نقطة واحدة محددة. فانت إذا ما رغبت في شراء قطعة قماش كاملة فعليك أن تدفع ثمنها كاملاً. وكما ان أقل خلل في السلك التلغرافي يجعل وصول البرقية المرسلة غير ممكن، كذلك فإن بلوغ الحالة اليوغية أمر مستحيل طالما أن هنالك حاجز ما يقف في طريق الصفاء الذهني المطلق.

*

الكارما . يوغا

«الكارما ـ يوغا» هي الاتصال بالله عن طريق العمل المجرد. فالواجبات المنزلية التي يقوم بها رب العائلة نحو أفراد أسرته

والنشاطات السياسية والاجتماعية والإنسانية، والعبادات الدينية وفقاً للكتب السماوية المنزلة، وترديد اسم الله بخشوع وصمت الخ... كلها أعمال تدخل في حقل «الكارما ـ يوغا» شرط أن تكون مجردة عن كل غاية شخصية أو أنانية وأن تكون خالصة لوجه الله ومن أجل تمجيده. إن هدف «الكارما ـ يوغا» هو نفس هدف الطرق اليوغية الأخرى، أي تحقيق الله داخل الذات بصورة شخصية أو بصورة مطلقة أو بالصورتين معاً.

*

الجنانا ـ يوغا

«الجنانا ـ يوغا» هي إدراك الذات الإلهية بواسطة اتحاد الروح الفردية بالروح الكونية. وهذا لا يتم إلا بعد جهود ومشقات كبيرة حتى يطهر القلب من جميع الادران الأرضية.

*

الباختي ـ يوغا

«الباختي ـ يوغا» هي معرفة الله وإدراكه روحياً بحيث تمتلىء النفس بمحبته وعبادته. وعندها يصبح بالإمكان معاينته بشكل مجسد بحسب الحالة التي يشاء أن يتجلّى بها على من يريد.

*

الهاتا ـ يوغا

«الهاتا ـ يوغا» هي سيطرة الإنسان على حواس جسده سيطرة تامة واخضاعها كلياً لارادته.

وهذا النوع من «اليوغا» لا علاقة له بالأمور الروحية.

*

مايا... ومايا

ما هو الفرق بين المحبة (دايا) وحب الذات (مايا)؟... إن المحبة هي الحب الذي يشمل كل شيء، ولا يقتصر فقط على ذاتنا وعائلتنا وعلى من هم من أبناء ديننا أو عرقنا أو طبقتنا أو وطننا.

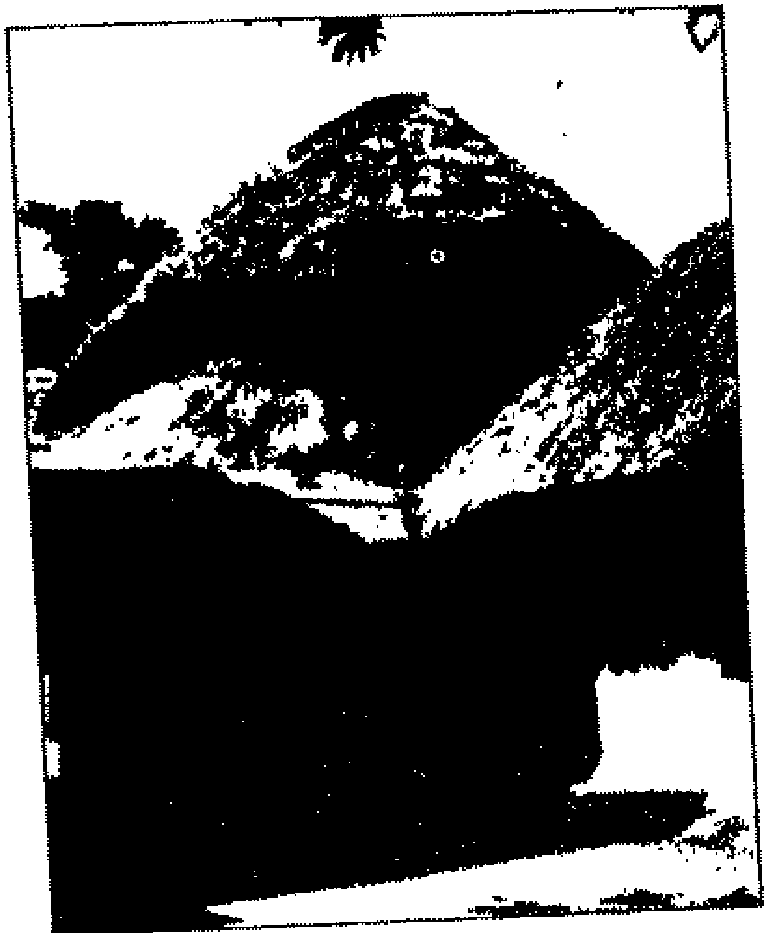
لذلك أقول لكم نمّوا المحبة في قلوبكم لأنها الوسيلة الوحيدة التي ترفعكم وتقودكم إلى الله.

أما الحب الأناني الذي يقتصر على الذات والعائلة وأبناء المذهب الخ... فيدمر الروح ويحط من قيمة الإنسان.

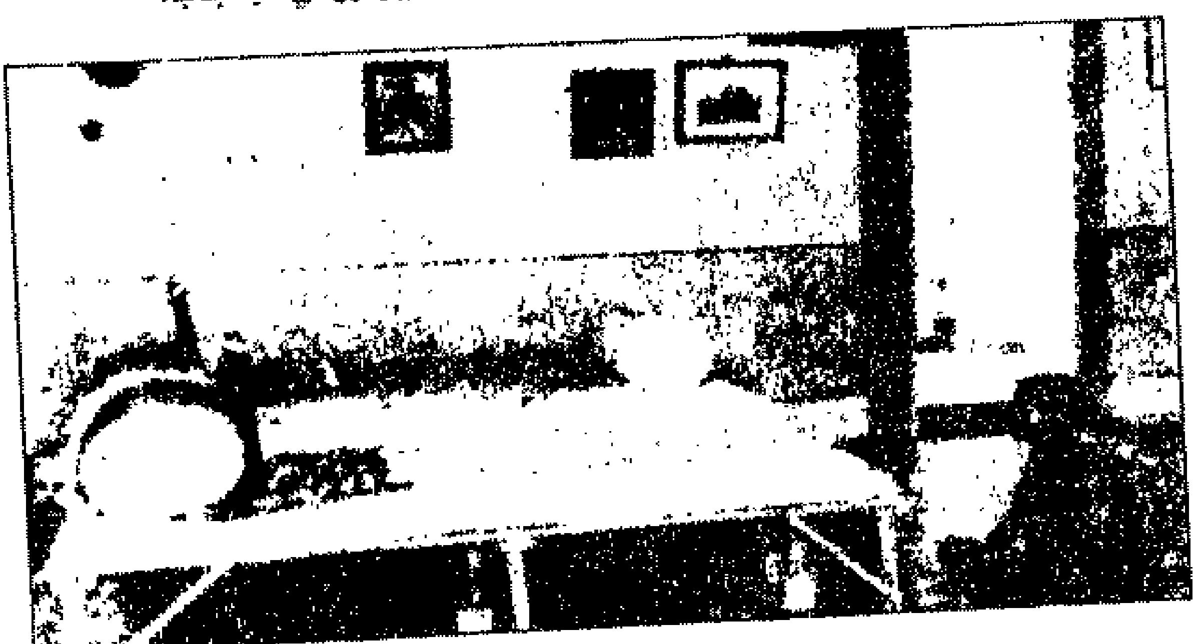
المحتوى



راما كريشنا



المنزل الذي ولد فيه راما كريشنا في قرية كاماربوكور في البنجاب.



غرفة راما كريشنا في داكشينسوار.



راما كريشنا في حالة انجذاب روحي، وهو ينشد إحدى الصلوات الفيدانتية.



ڤيفكننداحامل رسالة راماكريشنا بعد وفاته.



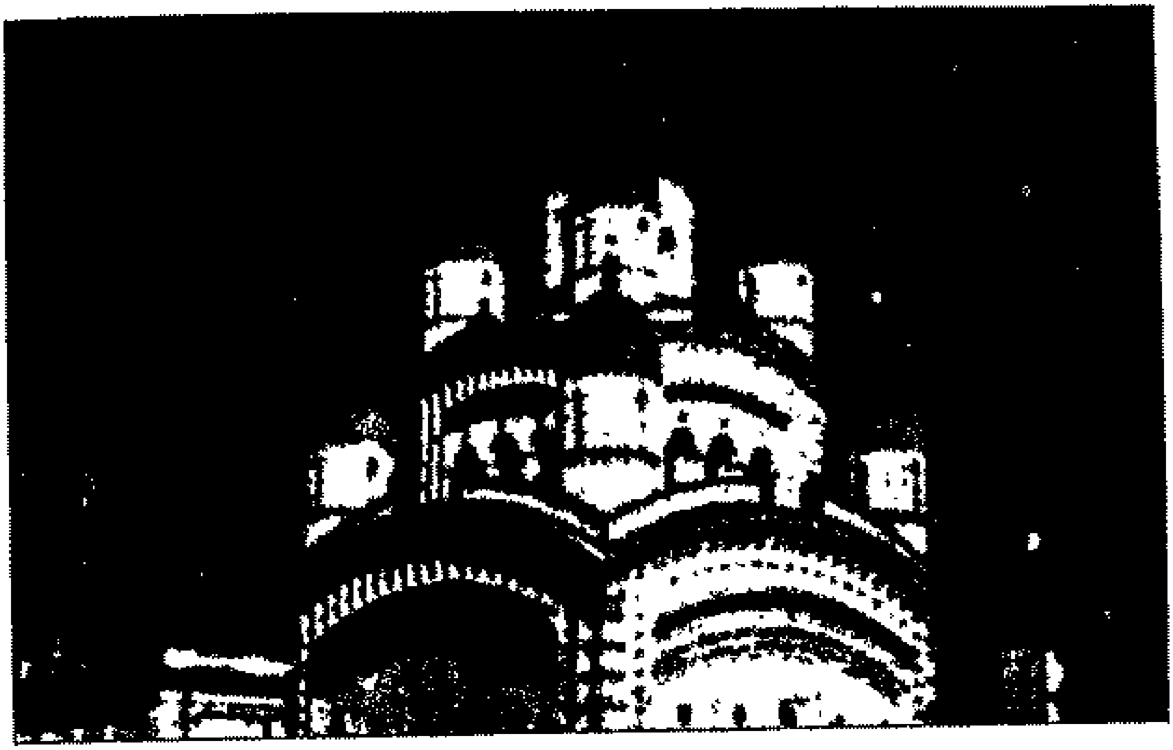
الإله سيفا زوج الإلهة الأم كالي. إنه المطلق الذي يجعل انسياب الزمن ممكناً.



ساردا ديڤي زوجة راماكريشنا الروحية.



يوغي يلقي درسه الأول على أحد التلاميذ: «ما يتصوره الإنسان يصيره».

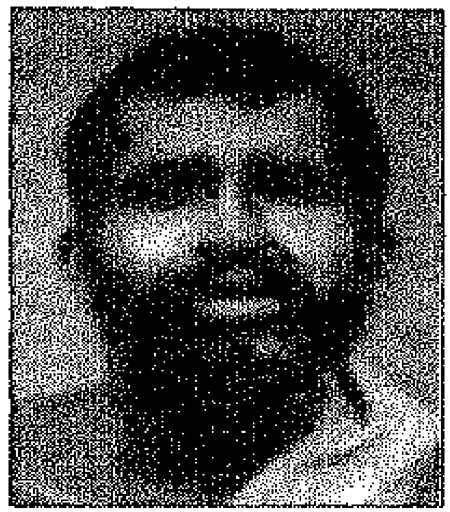


معبد حيث كان راماكريشنا يمارس كهانته. .



المنزل الذي توفي فيه راماكريشنا في شمال كلكوتا.

الحقائق الروحية مختـــارات مـــن راما كريشنا



راما كريشنا

راما كريشنا هو أحد كبار فلاسفة الهند ومفكريها في القرن التاسع عشر، إن لم يكن أكبرهم وأعظمهم شأناً على الاطلاق، وقد تعدت شهرته القارة الهندية لتشمل مختلف أنحاء العالم، ولاسيما أوروبا واميركا، حيث أقام تلامذته ومريدوه العديد من المراكز الثقافية لنشر تعاليمه الروحية وأفكاره الفلسفية.

وهذه المختارات من أقواله وتعاليمه تلخص لنا الحقائق الروحية الكبرى التي اهتدى اليها وآمن بها ونشرها على تلامذته وأتباعه، وأبرزها : ايمانه بوحدة الوجود ووحدة الانسانية ووحدة الأديان وتقمص الروح عبر ولادة جديدة تصاعدية مستمرة الى أن تبلغ في النهاية درجة الكمال المطلق، وعندها تتحد اتحاداً كلياً بالذات الالهية، وتذوب فيها الى الأبد.

وبقدر ما هي أفكار راما كريشنا وفلسفته عميقة وكونية في شمولها، بقدر ما هي بسيطة وسهلة وواضحة في أسلوب التعبير عنها. هذا الأسلوب الذي يعبر عنه صاحبه بأمثال سهلة الفهم واضحة المرامي، لا نجد لها مثيلاً [illegible] وتعاليم السيد المسيح الذي [illegible] يعتبره «المعلم الأول» و «[illegible]

